السيد عبد الرؤوف



الطبعة الاولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار الضياء
القاهرة

الناشر

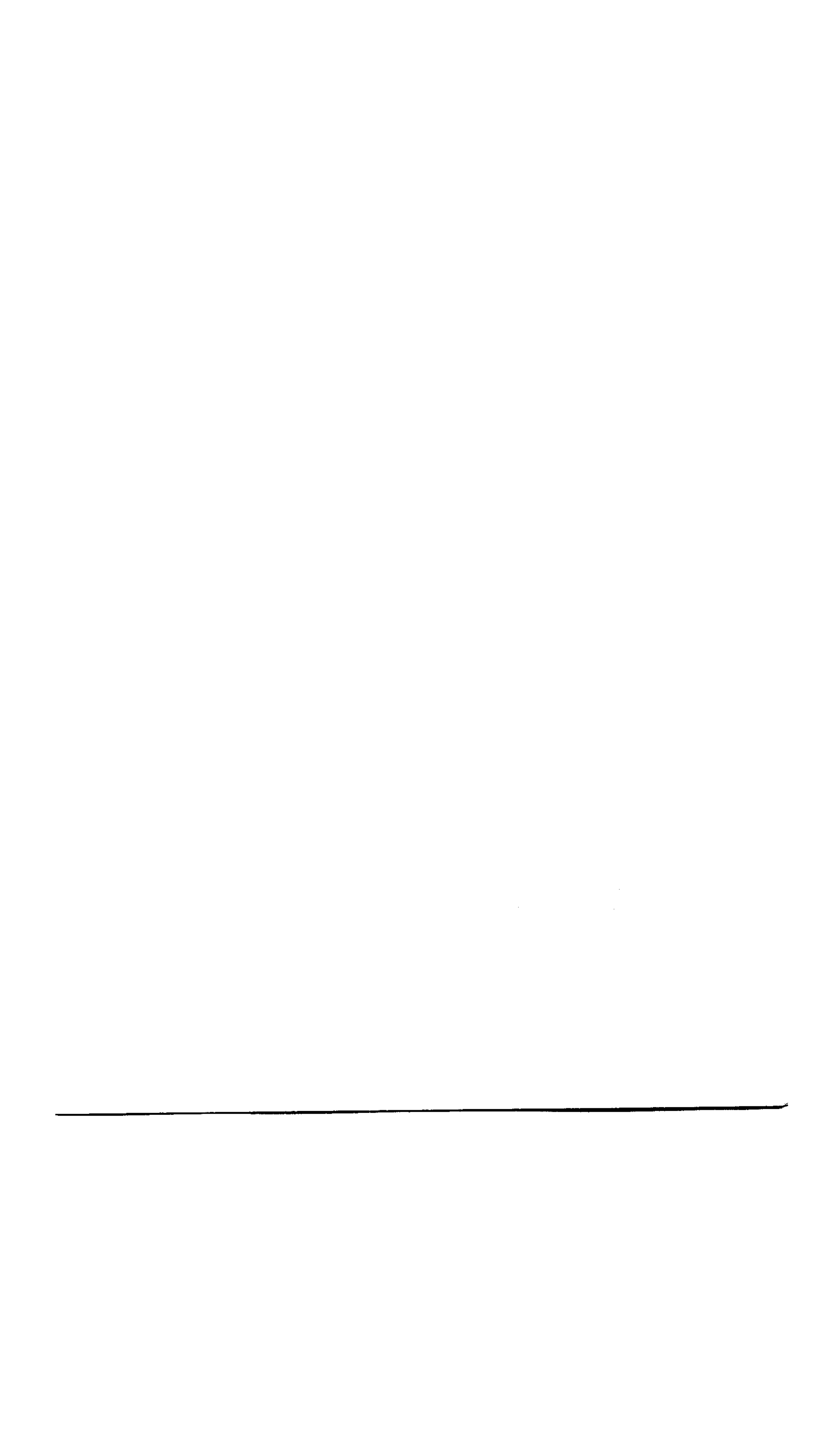
دار الضياء

٢٧ شارع محمود الديب ـ الزيتون ـ القاهرة
ص ٠ ب ٦٧ حلمية الزيتون ـ القاهرة
ت ٢٤٨١٨١٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الخطوط للاستاذ عبد المنعم البجيرمى
الغلاف للفنان السيد الديب
الرسوم الداخلية للفنان محمود فرج

الحياة داخل حقيبة



الاهداء

الى البجلات .. قريتي النبيلة ..

والى أهلها الطيبين ..

فلها ولهم أدين بالكثير .. الكثير ..

السيد عبد الرءوف

الصمت يحتل المدينة

الصمت يحتل المدينة

اشتد يا عبد التواب . اشتد عبد التواب . ركز يا عبد التواب . ركز عبد التواب . فتح فمه على اتساعه وجذب نفسا عميقا . . آلمه الهواء البارد يدخل صدره دفعة واحدة . غالب الرعدة الطارئة التى انتابته . ملأ صدره بالهواء . أبقى الهواء فى صدره قليلا واستعد . استنفر قوته واطلق الصيحة . « ها . من هناك ؟ » .

اصطدمت الصيحة بأقرب حائط وارتدت اليه متراخية مجروحة لم يجب أحد لانه لم يكن هناك أحد ليجيب . كان عبد التواب يعلم ذلك ولم يتوقع ان يسمع جوابا من أحد . لم تعد هذه الصيحة تعبيرا عن سطوته ويقظته كرجل أمن كما كانت فى بداية حياته ولم تعد عادة كما اصبحت بعد ذلك وعلى امتداد سنوات طويلة ، ولكنها فى هذا الوقت بالذات ضرورة لعبد التواب . ببساطة لانه لا يريد أن يبقى وحيدا . هكذا يعترف عبد التواب وهو يتحسر على تلك الايام القديمة عندما كانت صيحاته تهز الجدران ووقع حذائه الميرى يكاد يحفر الاسفلت .

هم بأن يطلق صيحة أخرى لكنه ادخرها لما بعد . قرر أن يستمتع أطول وقت ممكن بحالة الدفء التى تولدت من الصيحة تحسر من جديد على الايام الماضية البعيدة عندما كان يطلق صيحاته بلا حساب ، وكان يجوب منطقة حراسته شارعا شارعا وحارة

حارة ويكاد يفحص أبواب البيوت واحدا بعد الآخر . الآن لم يعد يستطيع . لا يكاد يمر في غير الشوارع الرئيسية ويكتفي بالنظر في مداخل الحارات بينما تتناوبه أحاسيس القلق والرهبة ولا يكاد يأتي الصباح حتى يطلق زفرة ارتياح وينطق بالشهادتين يعود الى نقطة الشرطة . يسلم بندقيته الى الشرطي الموكل به « السلحليك » ويمضي الى بيته حيث يسلم نفسه الى نوم عميق . في الايام القديمة لم يكن يهاب شيئا أو يخاف أحدا الا رؤساءه بالطبع . أما في هذه الايام فما عاد يدري ماذا يمكن أن يتأتى من هذه الحارات نصف المظلمة بل حتى من الشوارع المضيئة : كسر محل . سرقة مسكن ، خطف . لا احد يدري . خطر له سؤال : « ماذا لو حدث شيء من هذا في نوبتك يا عبد التواب ؟ » انتفض . غالب ثقل حركته ومضى مسرعا الى أقرب حارة . قطعها حتى النهاية . عاد وهو يكاد يجري وكأن شبحا سوف ينقض عليه من خلف أي باب أطبق على بندقيته يحميها ويحتمي بها . أصبح في منطقة الضوء في الميدان . تنفس بارتياح . شعر بأنه بحاجة الى أن يطلق صيحة جديدة . لكنه قال ان وقتها لم يحن بعد . قرر أن يشعل سيجارة ولكنه تردد . قال ان وقتها هي الأخرى لم يحن بعد . تساءل عما يجب ان يفعله اذن . في هذا الجزء من اليوم لا يريد أن يبقى وحيدا . في هذا الجزء الواقع بين بداية انسحاب ظلمة الليل وتقدم نور الفجر يبدو كل شيء غائما مستترا خلف ضباب لا يمكن لمسه وتبدو الدنيا موحشة ويشعر بالارهاق يستولي عليه في هذا الوقت يحتل الصمت المدينة . تغط المدينة كلها في النوم . ينام الناس العاديون مبكرا . والساهرون في الملاهي يكونون قد عادوا في سياراتهم التي تشق الصمت بين وقت وآخر . وما أن تمر به آخر سيارة حتى تستولي عليه الوحدة والوحشة . لا يبقى في الشارع الا قطة تموء وهي تمضي مسرعة



أو كلب يستيقظ بلا سبب فينبح نباحا متكاسلا ثم يعود للنوم .
ومن موقعه فى الميدان ألف السيارات العائدة بل كاد يحفظ أرقامها عن ظهر قلب . ونشأت معرفة بينه وبين السيارات . لا يهمه فى الواقع من بداخل هذه السيارات ولا ماذا يفعلون ولا من أين هم قادمون وأين هم ذاهبون . المهم الا يحدث ما يعكر الصفو فى منطقة حراسته . الشيء الغريب ، يتذكر عبد التواب الشيء الغريب هو هذه السيارة الفارهة الحمراء التى توقفت أمامه هذه الليلة على غير انتظار . تبادل ركابها معه كلمات غير ذات معنى ثم قدم له قائد السيارة سيجارة . تردد فى قبولها ثم فى النهاية أخذها . تذكر السيجارة المستوردة وقرر ان هذا هو الوقت المناسب لاشعالها . سحب نفسا عميقا من السيجارة وجلس على صندوق صادفه فى الميدان مسندا يده الى بندقيته . تعجب من ركاب هذه السيارة الحمراء . كانوا عائدين من أحد الملاهى . لماذا توقفوا ؟ من هم ؟ لم يجد جوابا . قال انهم قد يكونون سواحا . استبعد الفكرة فهم بالتأكيد أولاد بلد . قال أنهم ربما كانوا من اولاد البلد ولكنهم يعملون فى الخارج ، أو ربما كانوا ممن فتحت لهم أبواب الرزق فى الداخل . نهر نفسه عن مواصلة الأسئلة وقال : « دنيا لها العجب » .

فاجأه الضوء الباهر القادم من الاتجاه الآخر . انتصب واقفا دون أن يعرف السبب . قرر أنه أيا ما كان السبب فيجب أن يكون فى حالة انتباه . لا احد يدرى أى سيارة قادمة لعلها سيارة الدورية أو لعلها سيارة تأخرت على غير العادة على أية حال يجب ألا يؤخذ على غرة . لم تطل به الحيرة . توقفت السيارة أمامه . كانت سيارة شرطة . هبط منها ضابط شاب . اندفع عبد التواب نحوه . وقف وقفة انتباه ورفع يده بالتحية . طارت السيجارة فى الهواء ثم هوت الى الارض . حياه الضابط الشاب ثم سأله بحـــزم :

ـــ تمام يا عسكرى ؟

ـــ تمام يا فندم .

ـــ انتبه تماما .

ـــ حاضر يا فندم .

انطلقت السيارة . استعاد عبد التواب السيجارة كما استعاد انفاسه المبهورة . تألم . قال انه لم يعد مجرد عسكرى بل هو الآن عريف يحمل شريطتين . وقد اقتضاه الحصول عليهما خدمة ربع قرن من الزمان . وبعد هذا يأتى ضابط شاب فى مثل عمر أبنائه ويخاطبه قائلا : « يا عسكرى » سحب النفس الاخير من السيجارة والقاها على الارض ثم فركها بقدمه . رفع قدمه وتأمل بقايا السيجارة بغيظ . قال : « دنيا لها العجب » . قال ان الذى يغيظ اكثر أن الضابط لم يخاطبه بهذه الكلمة مرة واحدة فقط ، ولكن هذه خامس مرة تمر فيها سيارة الدورية ويسأله الضابط نفس السؤال : « تمام يا عسكرى ؟ » . تساءل : ما الذى جرى فى هذه الدنيا ؟

ذهب بعيدا . الى الزمن الذى رأى فيه فرق الهجانة لأول مرة فى حياته . كان بعد صغيرا . ودارت معركة بين قريته والقرية المجاورة وتعذر على حكمدار المديرية أن يفض النزاع فذهب غاضبا .. وفى المساء جاء الهجانة بوجوههم الفاحمة وسياطهم الطويلة اللاهبة وهم يعتلون أسنام الجمال . وعندما ظهروا على مشارف القرية انتشر الهلع فى القلوب واختفى الناس من الشوارع واغلقت الأبواب . وفى الصباح انسحب الهجانة الى خيامهم فى المنطقة الفاصلة بين القريتين . مر بهم الناس فرأوهم وادعين طيبين وتبادلوا معهم الأحاديث وعندما جاء المساء من جديد اعتلى الهجانة

أسنام جمالهم وجابوا حارات القرية يلهبون ظهر من يســـوقه حظه التعس الى طريقهم . ظلت ذكرى هــذه الأيام محفـورة فى ذهنه وتمنى فيما بعد ان يصبح واحدا منهم . ورغـم أنه لم يستطع أن يكون أكثر من شرطى عادى فانه كان قد تعلم منهم درسا فى غاية الأهمية ، الا وهو ان يكون صارما تماما فى اداء واجبه . قال : « ومع ذلك فانى لم أستطع أن أكون أكثر مـن عريف » .

.. أفاق منزعجا على صــــوت لم يتبينه . هز راســه هزة عصبية يزيل بها آثار الغفوة التى استولت عليه . امتدت يده تلقائيا نحو مصدر الصوت . انتبه تماما . وجد أمامه فتى صغيرا ضعيف البناء . تملكه الغيظ . شدد قبضته على رقبة الفتى. تأمله عبد التواب وهو فى قبضته مثل جرذ فى مصـــيدة . نظر اليه الفتى متوسلا وعيناه جاحظتان . خفف عبـد التواب قبضته وسأل :

ـ من انت ، وكيف جئت الى هنـا ، واين انت ذاهب ، ولماذا انت هنا ، وماذا تحمل معك ؟

ـ انت تخنقنى . دعنى وانا احكى لك كل شيء .

ـ هـا . تظننى غبيـا . أتركـك فتهرب وتنفـذ نواياك السوداء .

ـ ياشاويش انا فى عرضك . دعنى وساحكى لـك كـل شيء . والله العظيم لن أهرب .

ـ لاتقسم . كلكم كاذبون .

صرخ الفتى مســتغيثا . خرجت صرختـه متحشرجـة مشروخة . خفف عبد التواب قبضته ولكنه ظل مستعدا لاحكامها

من جديد . تحدث الفتى . أخبره أنه يعمل صبيا فى محـل الفطاطرى فى الميدان وأنه قادم من بيته ، وان مايحملـه معـه هو علبة مسلى لصنع الفطائر . أرخى عبد التواب يده وسأل :

ـ ولماذا جئت فى هذا الوقت المبكر ؟

ـ لأنظف المحل وأشعل الفرن حتى يأتى المعلم .

ـ وماذا كنت تريد ..؟

ـ عجزت عن فتـــح باب المحل وظننت أنك تســـتطيع مساعدتى . لكنى الآن لا أريد .

ـ لماذا ؟

ـ لا داعى . سأنتظر حتى يحضر المعلم . يظهر أنه أعطانى مفتاحا غير مفتاح المحل

ـ اذن ابق بجانبى هنا الى أن يحضر .

ـ لا . شكرا . أفضـــل البقاء بجوار المحل حتى لا يغضب المعلم .

ذهب الفتى . عاد عبد التواب وحيدا . رغم برودة الجو فى هــذا الوقت الموحش من اليوم اكتشــف عبـد التواب أنه يتصبب عرقا . قــال أن لوحشة لا ترجع الى برودة الجــو أو ظلمة الشوارع ولابد أن لها سببا آخر . انتهى الى أنه ليس فى حالة طيبة وأنه يوشك أن يصرخ دون أن يعرف بم يصرخ وماذا يقول . قال أنه لابد ان يفعل شيئا قبل أن يجن . هــب واقفا . مشى . دار فى الميدان . مر بمحل الفطـاطرى . وجـد الفتى جالسا القرفصاء مسندا ظهره الى باب المحل وقد وضع رأسه بين ركبتيه . ناداه فلم يجب . أدرك أنه قد غلبه النوم فنام .

تردد عبد التواب لحظة ثم شرع يتحدث . قال : « كان راكبو الجمال ينتشرون مع قدوم المساء . وكانت القرية تنام مبكرا . وفى الليل يسيطر عليها الصمت فتبدو الشوارع كئيبة موحشة . وكان هناك طفل صغير يخاف راكبى الجمال ويتمنى فى نفس الوقت أن يصبح واحدا منهم » .



الحياة داخل حقيبة

الحياة داخل حقيبة

هريدى عبد الدايم .. هاهى الايام قد مرت ياهريدى وجاءت اللحظة التى ترقبتها طويلا .. خمس سنوات قد انقضت شاب فيها رأسك وشاخ قلبك .. ولكن لابأس فقد آن لك ان تستريح .. كم كانت طويلة هذه السنوات ياهريدى .. كل ساعة منها كانت بطول ليلة شتوية مظلمة من ليالى الحراسة فى حقول القصب بنجع حمادى .

الآن ياهريدى تبدو هذه السنوات أشبه بحلم طويل بدأ فى لحظة كفرت فيها بالارض وبالحراسة وبالقصب ومصانع السكر التى أمضيت فيها عمرك .. كان لديك عذرك .. ففى هذه الايام التى تبدو الان بعيدة كنت قد شارفت على الاربعين وكنت قد اصبحت زوجا وابا لخمسة أبناء .. لم تكن قراريطك الخمسة التى تزرعها بنفسك وأجرك من الحراسة الليلية كافية لان تعيش أنت وأسرتك .

كانت ايامك صعبة ياهريدى .. وازدادت صعوبة عندما تغيرت الدنيا وأصيبت الاسعار بالجنون .. حاولت ان تتعلم صنعة ولكن الوقت كان قد فات .. بعت قراريطك واحدا بعد الآخر لكى تعلم أبناءك واحتملت عار التفريط فى أرض الاباء والاجداد .. وجاء يوم وقفت فيه خائفا عاجزا .. فلا أنت حافظت على الارض ولا أنت استطعت أن تكمل تعليم أكبر أبنائك وكانت غاية حياتك ان تصل به الى الجامعة .. كان الحزن يحتل كل

مســاحة قلبك عندما تعود في الفجر بعد انتهاء نوبة حراسـتك لتلتقي به وهو ذاهب الى مصنع الســكر حيث يعمل .. وكنت تشعر بالخجل وهو يدفع اليك أجره الشهرى ليعينك على اعالة اخوته .. كنت تشــعر ياهريدى أنك مازلت قويــا وأنك لابد ان تعوض فى أبنائك الآخرين مافاتك أن تحققه مع ابنك الأكبر .. ولم تكن مستعدا لان تفعل شيئا تخجل منه .. كنت مستعدا لأى عمل شريف .. ولكنك شعرت بأن الدنيا ضيقة وان كل الابواب مغلقة في وجهك .. يومها قررت ان تترك بر مصر كله وقلت : يلا الله لخلق الله . وأقسمت يمينا مغلظا الا تعود الا غنيا أو أنك لاتعود أبـدا .. يومهـا ياهريدى بعت كل ما تملـك لكى تدفع للمقاول .

فى ليلة حزينــة ياهريدى تركت هنية زوجتــك التى لم تفارقها على مدى عشرين عاما كاملة . حبست دموعها وودعتك وهى تدعو الله ألا تقف أمام حاكـم ظالم .. وبكى ابنك الأكبـر وراســه على كتفك .. وقبلت أبناءك الصــغار وقلبك يبكى .. حملت مخلاتك وبها أشياؤك القليلة ومضيت الى الســويس .. وحين وطأت قدماك سطح الباخرة انتحيت جانبا وشرعت تبكى .. هل كنت ياهريدى تبكى زوجتك وأبنــاءك الذين فارقتهم أم كنت تبكى قراريطك الخمسة والحراسة الليلية وحقول القصب ومصنع السكر .. أم ترى كنت تبكى نفسك وغربتك ومستقبلك الغامض المجهول ؟؟

لاتبتئس ياهريدى فقد انقضى كل ذلك وأصبح الآن ذكرى .. كثيرة هى الأشياء التى ساءتك أو سرتك .. كثيرة هى الليالى التى أمضيتها ساهرا مؤرقا تفكر فى هنية والأبناء والليالى التى أمضيتها ساهرا على شريط تسجيل أحضره لك صــديق تحمل مشــقة السفر كى يوصل هداياك ونقودك للابناء وجــاء حاملا أخبارهم .. كثيرة هى الايــام التى أمضيتها مطاردا من رجــال



الجوازات الذين يتعقبون المقيمين فى البلاد بدون كفيل ..
وكثيرة هى الايام التى امضيتها بلا عمل تعيش على القليل المدخر
من أيام عمل سابقة .

لاتحزن ياهريدى فقد انقضى كل ذلك .. وانت الآن على
أرض الوطن .. نعم أرض الوطن .. انت الآن على مقعدك فى
طائرة مصرية .. أى على أرض مصرية .. لايستطيع احد ان
ينالك بسوء .. مكانك ياهريدى بجوار النافذة .. مضيفات
الطائرة يكدن ينتهين من احصاء الركاب .. بعد قليل يغلق باب
الطائرة .. هذه أول مرة تركب فيها الطائرة وستكون آخر مرة
.. لن تغادر بر مصر مرة اخرى .. لم تعد بحاجة لان تفعل ذلك
.. أنت الآن تملك المال .. حقيبة اليد الصغيرة التى تحتضنها
بين ساقيك تضم بضعة الوف من الجنيهات جمعتها يوما بعد
يوم طوال خمس سنوات صعبة ومن كثرة ماجمعتها تعلمت
الحساب بل تعلمت ما هو اكثر .. تعلمت الكثير عن أسعار
العملات والفرق بين التحويل عن طريق البنك وشراء الجنيهات
من السوق وما تعلمته يا هريدى سوف ينفعك كثيرا فى المستقبل
.. فأنت بالطبع لن تعود للحراسة .. هذا عهد قد انقضى ..
ولن تكفيك القراريط الخمسة تستعيدها بأى ثمن .. لم تكن
هذه القراريط تسد حاجتك فى الماضى فما بالك اليوم وقد كبر
الاولاد وتغيرت الدنيا وازدادت الاسعار جنونا .. لابد من ان
تنفذ مشروعا محترما يدر عليك ربحا وفيرا .. انك لم تفكر حقا
فى مشروع محدد .. لكن زملاءك الذين سافروا وعادوا جاءوا
معهم بمئات من الافكار لمئات المشروعات .. وانت الآن تملك
المال وتملك الخبرة .. والأيام الآن مختلفة عن الزمن الماضى ..
الآن مجالات الكسب مفتوحة عن آخرها لكل من يملك المال ..
كل شىء فى صالحك الآن .. لم يعد ينقصك شىء .. لا المال
ولا الخبرة ولا الظروف المواتية .

هذا هو باب الطائرة قد أغلق ياهريدى .. الطائرة تتحرك على الممر استعدادا للاقلاع .. دع المضيفات يلقين بتعليماتهن الركاب والق نظرة اخيرة على الارض التى اختلط بعرقك تراب شوارعها وجدران بيوتها ومدارسها خمس سنوات .. ودعها ياهريدى بشعور محايد .. بلا حزن ولا حقد فقد اعطيت واخذت بلا ألم ولا خوف فلم يعد هناك بعد ما تخاف منه .. لن يرهبك نسيان دفتر الاقامة فى السكن .. لن يجرحك مشهد رجال الجوازات وهم يوقفون الحافلات وسيارات التاكسى بحثا عن المقيمين دون كفيل وطنى .. لن تتمزق ألما لرؤية صديق ينتزع أمامك وتحت نظرك ويساق الى جوازات الترحيل تمهيدا لسفر بلا عودة .

بعد الآن ياهريدى لن يبيعك كفيل لكفيل .. ولن يطاردك الكفيل الأخير فى بداية كل شهر ليقاسمك أجرك ممتنا عليك بأنه صاحب الفضل فى استمرارك فى البلاد .. الآن لم تعد محتاجا لان تنزل ضيفا على زميل يقبلك على مضض وفى خوف لن تضطر لان تبيت ليالى على مقهى فى طريقخارجمدينة .. لن تضطر لان تقبل العمل بأجر بخس مع مقاول من بنى وطنك يوفر لكفيله من دمك وعرقك لم يعد لكل هذا مكان فى حياتك فانس كل شيء .. أو أن شئت فاحتفظ به ذكرى تحكيها لابنائك أو تبقيها لنفسك .

الله أكبر ياهريدى .. لقد كانت هذه السنوات طويلة ثقيلة وقاسية ولكنها مرت على كل حال .. أنت الآن طليق .. الآن أنت فى أمان .. وقد تعبت كثيرا . تستطيع الان ان تستريح .. أن ترقص .. أن تغنى موالا أخضر .. ان تعزف على أرغولك كما كنت تفعل فى سالف الزمان .. لكنك بحاجة للنوم أكثر من أى شيء آخر .. لقد أمضيت الايام الاخيرة بلا نوم .. نم ياهريدى .. أسند رأسك على ظهر المقعد .. اغلق عينيك .. خذ نفسا عميقا ونم .. ولاتنس ياهريدى أن تضم ساقيك بكل قوة على

حقيبة اليد الصغيرة .. ففى هذه الحقيبة ترقد حياتك كلها
أضمم ساقيك عليها بكل قوة ولم .

* * *

يسند هريدى رأسه فى أرتياح .. يأخذ منه التعب فينام
.. تعب هريدى كثيرا فى الأيام السابقة للسفر .. منذ أسبوع
وهو يعد العدة لهذا اليوم ولهذه اللحظة .. صفى حساباته مع
كفيله وترك القرية الصغيرة التى كان يعمل بها وذهب الى المدينة
القريبة .. استنجد ببعض المعارف الذين جمعتهم الغربة
ليساعدوه فى الحجز والسفر .. أمضى لبالى يجوب الأسواق
ليشترى مافاته ان يشتريه من قبل .. مر على الصحاب واحدا
واحدا يسأل ان كان يستطيع ان يؤدى اى خدمة . حملوه الكثير
من الأشواق والرسائل المكتوبة وشرائط التسجيل والهدايا
والنقود للأهل .. ومنذ يومين لم ينم لحظة واحدة .. لقد قضى
هو وبعض الزملاء ليلة كاملة مسافرين بالبر .. وفى الصباح
الباكر كانوا يفترشون الرصيف امام مكتب شركة الطيران ..
وعندما فتح المكتب كانوا اول الداخلين وكان على موظف الحجز
أن يقسم بأغلظ الأيمان أن حجزهم مؤكد وان ما عليهم سوى
الانتظار حتى موعد الرحلة فى اليوم التالى فيتجهون الى المطار
.. ولكن بعض الذين سبق لهم السفر ظلوا متراوحين بين
التصديق والشك .. ودفعوا جميعا بمتاعهم فى سيارة نقل
حملتهم الى المطار حيث قسموا بينهم نوبات الحراسة والذهاب
الى السوق لتدارك ما فاتهم شراؤه .

كان هريدى متراوحا بين الشك واليقين مـ امر السفر ..
ولم يكن هذا كل مايشغله .. بل كان هناك ما هو أهم وأخطر ..
فحتى هذا الوقت لم يكن قد وصل الى قرار بشأن نقوده .. ظل
يحملها فى جيبه الداخلى .. ولكنها كانت كثيرة فلذلك انتفخ
جيبه بشكل ملحوظ وادرك أن ذلك قد يثير الشك فيه .. وهذا

امــر مخيف .. شعر أنه في مأزق لابد ان يجد له حــلا .. في البداية كان يحول كل مايدخره شهرا بشهر .. ولكن زميلا قديما عارفا بالامور نصــحه بألا يفعل ذلك وان يرسل لأبنائه ما يكفيهم فقط وأن يشترى بما يدخره جنيهات مصرية من السوق .. في البداية لم يفهم هريدى المقصود من ذلك .. ولكن صديقه شرح له الفرق بين سعر التحويل عن طريق البنك وســعر الشراء في السوق .. ومع الايام ادرك هريدى الفارق وأصبحت القاعدة هى ان يشترى الجنيهات من السوق والاستثناء هو ان يرسل لابنائه مبلغا يقدر أنه يكفيهم لفترة .. وفى البداية كان هريدى يشــعر بالخوف .. وقد عبر عن مخاوفه مرات عديدة .. لكن صــديقه طمأنه .. قال ان الامر لا يتطلب الا قدرا من الشــجاعة ورباطة الجأش .. قال أن أى بادرة اضطراب أو تردد كفيلة باثارة الشك فيه من موظفى الجمارك .

لاحظ هريدى بكثيــر من الخوف انتفاخ جيبه .. قال ان الامــر لن يكون مجرد افتضــاح سر يحرص على اخفائه .. لكن يعنى ضياع جهد خمس سنوات .. بل ضياع حياته بأكملها .. تذكر قول صديقه ان رجال الجمارك لايهتمون بالأشياء الصغيرة .. قرر ان يشترى حقيبة صغيرة .. تذكر ان هناك المئات من الحقائب المتشابهة وأن حقيبته قد تختلط بالحقائب .. قرر أن تكون الحقيبة التى يشــتريها متميزة فى حجمها وشــكلها بحيث لا تضــيع ويضــيع معها عمره . انفق ساعات من التجوال فى السوق حتى عثر على حقيبة اكد له البائع انه لم يعد فى المحل من نوعها سواها وان احدا لم يعد يقبل عليها .. اشتراها وظل وهو يمشي يتطلع الى النــاس فى الطرقات ليرى ان كانت ثمة حقيبة تماثلها .. شــعر بســعادة بالغة عندما انتهت جولته ولم ير لحقيبته شــبيها .. وضــع نقوده فى قاع الحقيبة الصغيرة وغطاها بعلب الســجاير وقطع الحلوى وأشياء أخرى تافهة .. وظلت يده قابضة عليها .. لم يتخل عنها لحظة حتى اتخذ مكانه

فى الطائرة فوضعها بين ساقيه ومن فوقها جهاز التسجيل .. استراح واطمأن ونام .

كان نومه عميقا لكنه لم يطل .. فقد خيل اليه أن الطائرة لم تغادر أرض المطار .. وأن باب الطائرة فتح بعد أن كان أغلق .. دخل منه رجال ذوو وجوه كئيبة متجهمة .. سألوا عنه بالاسم .. سأل نفسه فى خوف عما يريدون .. اشارت اليه أيدى وعيون جميع المسافرين والمضيفات .. ازداد خوفه .. تقدم منه الرجال المتجهمون .. مدوا أيديهم نحوه .. سألهم عما يريدون منه .. لم يجيبوا اقتربوا منه أكثر وأيديهم تمتد أكثر .. انقلب خوفه رعبا وهياجا .. قفز من مكانه .. سقطت الحقيبة .. التقطها أحدهم .. تقاذفوها فيما بينهم وهو يحاول اللحاق بها .. فتحت الحقيبة تطايرت الجنيهات حملها الهواء خارج الطائرة ذهبت هباء فى كل اتجاه .. انهار هريدى عبد الدايم .. استلقى على أرض الطائرة يبكى عمره الضائع .. جاء رجل وقور ذو وجه أبيض ولحية بيضاء طويلة والنور يشع من حوله .. شكا له هريدى .. مسح الرجل على رأسه بلطف وأعاد له النقود واختفى .. ضحك هريدى وبكى فى وقت واحد .

استيقظ هريدى من نومه القصير .. كان جاره يربت على يده .. رأى وجبة العشاء قد قدمت والركاب يتناولون طعامهم .. تلمس الحقيبة واستراح عندما وجدها .. رفعها الى فخذيه وتلمس محتوياتها .. ازداد ارتياحا عندما وجد النقود فى قاعها .. حينئذ فقط بدأ يتناول طعامه .. وعندما فرغ من تناول الطعام شرب الشاى واشعل سيجارة .. ألقى نظرة من النافذة .. لم يكن ثمة سوى مصباح أحمر صغير فوق جناح الطائرة يضىء وينطفىء ولا شىء بعد ذلك سوى الظلام تساءل فى سره متى تصل الطائرة .. امتد السؤال طويلا حتى وصل الى مضيفة الطائرة أجابت المضيفة بأن الوصول أصبح وشيكا .. وان الطائرة بدأت الهبوط التدريجى .

رقص قلبه فرحا .. تعلقت عيناه بزجاج النافذة .. شرع يعد الثوانى فى انتظار أن يرى أول شـــعاع من القاهرة .. كم ترقب هذه اللحظة .. كثيرا ما سمع من المهندس حسن عن روعة هذا المشهد .. كان المهندس حسن يتحدث بعشـــق .. قال انه سافر كثيرا وزار بلاد كثيرة ورآها من الجو ومن البحر فى الليل والنهار ولكنه أبدا لم ير مدينة فى بهاء القاهرة .. اشتاق هريدى لأن يــرى القاهرة من أعلى وفى الليل .. قال ان هذه هى المــرة الاولى والأخيرة التى يرى فيها هذا المشـــهد .. قـــرر ألا تغادر عينه زجاج النافذة حتى يرى القاهرة *.

***

هريدى عبد الدايم .. هاهى القاهرة تلوح لعينيك فكيف تراها .. بســـاط من الضـــوء بلا ملامح فماذا تعنى لك ؟ ها أنت تقترب منها أكثر ياهريدى وترى تجمعات المصابيح مثل رؤوس الدبابيس والمبانى الكبيرة مثل علب الثقاب فما هو شعورك ؟ هل تظن ياهريدى أن ثمة مكان فى الدنيـــا بمثـــل جمال القاهـــرة ؟ المهندس حسن قال انه ليست هناك مدينة فى مثل جمال القاهرة .. هذا صحيح ولكن دعك من المهندس حسن .. ها أنت ترى القاهرة من فوق لاول واخر مرة فى حياتك فكيف تراها ؟ هذا هو قلبك يرقص طربا .. ها أنت تشعر بأنك تولد من جديد حقا .. ها هى القاهرة تستقبلك بلا اكتراث فكيف سيكون استقبالك لها؟ لقد اقسمت ياهريدى ان يكون أول ما تفعله عند وصولك هو أن تقبل ارض مصر فهل تفعل ؟ حتى لو ســـــخر منك الناس هل تفعل ؟ هاهى عجلات الطائرة تلامس أرض المطـــار .. قلبك يكاد ينخلع بعد أن كادت اذناك ان تخترقا .. ها أنت تفك الحـــزام وتحمل حقيبتك ومسجلك وتزاحم للوصول الى الباب .. اندفع ياهريدى تجاه الباب المفتوح .. استنشـــق ياهريدى هواء مصر

.. املأ به صـدرك .. املأ عينيك بالزحام وأذنيك بالضجيج
استعد لزحام الجوازات والجمارك والضباع بين سائقى التاكسى
.. وتذكر قسمك ياهريدى ..

* * *

يهبط هريدى عبد الدايم من الطائرة لأول مرة وآخر مرة
فى حياته .. ينحنى ويقبل أرض المطار ولا ينسى هريدى فى
نفس الوقت أن يحكم قبضته على حقيبة اليد الصغيرة ..

* * *

الرحلة الشتوية

الرحلة الشتوية

ينقضي النهار الشتوى سريعا . تنسحب الشمس رويدا من شوارع القرية ومن الحقول . يعود الرجال من الحقول على أمل وجبة ساخنة مهما كان نوعها تدفىء المعدة وكوب شاى يدفىء الرأس . تختفى الشمس قرصا احمر يصطرع مع ركامات السحب التى تنذر بليلة ممطرة . تغزو الظلمة الشوارع فى موجات هائلة متعاقبة . يفتح باب تنطلق منه طفلة تلتف بقطعة من شال قديم وبيدها علبة سالمون قديمة فارغة . تجرى فى اتجاه البقال القريب لتشترى بعض الزيت لأمها التى تأخرت فى اعداد العشاء . يعود الشيخ حسين الضرير الى بيته ليتوضأ من جديد لاصطدامه بكلب شارد فى الظلمة . بفعل الريح يصطفق باب نسيت صاحبته أن تحكم رتاجه . يبدأ المطر فى الهطول . يتأكد نوح من أن ابنه قد وضع مايكفى من العلف امام بقرته وحماره . لا يبالى فى ذلك بالسعال الذى يرافقه منذ بداية الشتاء . يسأل المعلم حامد الشتيوى عماله أن كانوا قد أتموا تغطية شجيرات الطماطم بالقش لحمايتها من البرد يدلف بعد ذلك الى المقهى حيث يعقد صفقة جديدة لشراء محصول الفول الذى لم ينضج بعد . يسعل سليم الخفير سعلة طويلة يردفها بالنداء : « من هناك » ؟ يجيب صوت مرتبك : انا يا عم سليم . يتعرف على الصوت . أنه صوت راضى . ترى ماذا سرق فى هذا الوقت المبكر من الليل . يناديه . يكتشف أنه لا يحمل

شيئا ظاهرا ولكنه يصر على تفتيشه . يحتج راضى ولكنه يرضخ فى النهاية يخلى سليم سبيله ولكنه يظل فى حالة شك يسأل الله السلامة من أن يحدث سوء فى نوبة حراسته . يدلف سليم الى المقهى ليحتمى من المطر . تستقبله حرارة الموقد والانفاس والنور الكهربائى . تستهويه أكواب الشاى الساخنة يتصاعد منها البخار وتسترعى انتباهه حلقات الدخان المتصاعدة من الجوزة يتبادلها المعلم حامد ورفاقه . يلقى سليم التحية ويتخذ طريقه الى احد المقاعد . يستضيفه المعلم جمعة على كوب شاى وتعميرة . بعد رفض مصطنع ينضم سليم الى المجموعة . تسرى الحرارة فى جسده ويسترخى . يقبض على بندقيته ويسند ذقنه على ظاهر كفه ويبدأ يحكى ذكرياته عن الحرب . ذكريات قديمة رواها مئات المرات ومع ذلك فالمعلم حامد مستعد دائما للاستماع . ثمة بين الاثنين اتفاق ضمنى على الايتدخل أحد منهما فى شئون الآخر . سليم لا يتدخل فى خصوصيات المعلم حامد . والمعلم حامد لايتدخل فى ذكريات سليم الحربية . بل هو مستعد بحكم أنه خدم معه فى نفس السلاح لأن يقسم بأغلظ الايمان على صحة مايرويه سليم . وأنه شاهده بنفسه وهو يذبح ضابطا اسرائيليا كبيرا قبل ان يتكاثر عليه جنود الاعداء ويوقعوه فى الأسر . أما ما تبع فى الاسر فهذه قصة لم يحضرها المعلم حامد ولكنه مع ذلك مستعد لتأييد رواية سليم مستدلا بما رواه الاسرى الآخرون العائدون . ينهى سليم روايته فجأة كما بداها فجأة . يبدو وكانه تذكر أمرا خطيرا يهم بالخروج ولكن المطر يمنعه من الخروج فيعود الى الجماعة .

* * *

يفرغ الشيخ صديق من صلاة العشاء . يتبادل والمصلين خلفه الدعاء بصلاة الجماعة فى الحرم . يتقدم فتى صغير ويقبل يد الشيخ صديق . يسحب الشيخ صديق يده ويربت على رأس الغلام ويتجه الى أحد الرجال :



ـ ابنك هذا ياحسين ؟

ـ محسوبك ياسيدنا .

ـ بارك الله لك فيه وجعله خير خلف لخير سلف .

ـ ببركاتك ياسيدنا .

ـ ببركات الله سبحانه وتعالى .

يتخذ الشيخ صديق سبيله الى بيته . يحث الخطو ويتلمس فى نفس الوقت طريقه فى الظلمة على الأرض الطينية التى زادتها النوة الجديدة لزوجة . يدلف الى بيته ويخلع عنه عباءته القديمة . يسأل أن كان الأولاد قد أتموا مذاكرة دروسهم . يتناولون العشاء جميعا . يذهب الأولاد للنوم . أما هو فيبقى مستيقظا يقلب فى بعض الكتب القديمة والصحف ليحضر خطبة الجمعة . يمضى الى فراشه وهو يردد أذكاره الليلية قبل النوم .

رغم البرد والمطر تنام القرية . حتى الكلاب والفئران تنام . ولكن . ليس بالضبط تنام كل بيوت القرية . ثمة بعض البيوت تسهر . تحتفظ بحركتها وحيويتها . شرايين هذه الحركة تلك الأسلاك الممتدة من داخل هذه البيوت الى أعمدة خشبية خارجها وصولا فى النهاية الى مولد الكهرباء الخاص الذى يملكه الحاج درويش الصباغ . بفضل هذه الأسلاك تظل هذه البيوت على اتصال بالكلمة والصورة مع العالم الخارجى حتى وان انقطع الطريق الموصل بين القرية والقرى الأخرى بفعل المطر . فى بيت الحاج درويش الصباغ يسهرون يشاهدون الدنيا ومايجرى فيها على الشاشة الصغيرة . يشاهدون الدنيا بألوانها الطبيعية .



الشاشة الصغيرة تمتلىء بوجه مستريح . الاستاذ باهر الصباغ يتحدث . يقول كلاما رائعا وكبيرا . القضية الأساسية في التنمية الحضارية هي التقريب بين نوعية ومستوى ومعدلات النمو بين القرية والمدينة وذلك من خلال تعديل الانماط الفكرية والسلوكية للقرية بحيث تقترب من الأنماط السلوكية والفكرية للمدينة . فاذا كان من الصعب أن نصل الى المدينة القرية فان السبيل الوحيد هو تحقيق فكرة القرية المدينة ، أى القرية التى تحافظ على قيمها الاصيلة الموروثة وتأخذ فى نفس الوقت بالأساليب التكنولوجية الحديثة فى الانتاج والخدمات المستخدمة فى المدينة .

ــ كم هو متحدث بارع .

يعلق الحاج درويش الصباغ . ويؤمن الحاضرون على حديثه . يواصل الأستاذ حديثه :

وهذا الامر لا يمكن ان يتم طفرة . ولا يمكن ان نتوقع انجازه عن طريق جهة معينة . وانما يأتى عن طريق أبناء القرية أنفسهم .

ــ يسلم فمك .

يعلق أحد أبناء العم الحاضرين . ينهره الحاج درويش . يواصلون الاستماع والمشاهدة :

والمقصود بأبناء القرية هنا ليس مجرد ابنائها المقيمين فيها وانما أبناؤها الذين نزحوا عنها وذابوا فى المدينة . هؤلاء يجب أن يعودوا الى القرية . ان لم يكن للاقامة النهائية بها ونقل خبراتهم المدنية لها فعلى الاقل يجب أن يخصص كل منهم فترة يمضيها بين أهله واخوانه . يأخذ منهم ويعطيهم . وهكذا نبنى المجتمع الجديد الذى نريده .

يمسح الاستاذ عرقه . يفـــرك ابنـــاء العم ايديهم طربا ويعود كل منهم الى بيته يتلمس طريقه فى الظلمة . يقرر الحاج درويش ان يتصل بالاستاذ فى صباح اليوم التالى ليهنئه بهـذا الحديث الرائع . ولاينسى أن يراجع حسابات تجارية قبـــل أن ينام .

***

يصحو الشيخ صديق فجأة . يخيل اليه انه فى حلـم . يستعيذ بالله من الشيطان ويحاول العودة للنوم . تحول طرقات الباب دون ذلك . يتعثر فى طريقه الى الباب الخارجى ليفتـــح يندفع حسين رشدى الى الداخل مستغيثا . من كلماته المتقطعة يعلم الشيخ صديق أن ابنه مريض . يلتف بعباءته القديمة ويمضى مع الرجل الى بيته وهو يحاول أن يهدىء من روعه . لايتــوقف الرجل عن النحيب وعن الحديث المتقطع . يعرف الشيخ صديق أن الولد تنتابه نوبات صداع حادة وان كل محاولاته للعلاج قـد فشلت . يأخذ الشيخ صديق رأس الفتى بين يديه ويقرأ القرآن يحضر الطبيب . يقول أنه لم تعد له حيلة فى الامر . ينتحى بالشيخ صديق جانبا ويفضى اليه بمخاوفه من أن يكون ثمـة ورم خبيث فى المخ . يقرر الشيخ صديق أنه لابد من الســفر الى القاهرة فى الصباح . يسأل حسين رشدى فى لهفة عن السبب يجيب الشيخ صديق بأن الامكانيات أفضـــل والمتخصصين من الاطباء أقدر على معرفة الحالة . يؤمن الطبيب على رأى الشـيخ صديق . ينصرف الطبيب بعد أن يحقن الفتى بدواء مخدر تخور قوى الفتى بين يدى الشيخ . ينهـار الآب وتصرخ الام . يهدىء الشيخ صديق من روعها . يطمئن على أن الفتى قد نام ويغـادر والحيرة تتملكه . من يخلفه غدا فى خطبة الجمعة والصـــلاة

بالناس . هذا أمر لم يتخلف عنه منــذ عشرين عاما . حتى في أشد حالات مرضه لم يتخلف عنه . لم يكــن الامر في يوم من الايام وظيفة . ولم يكن حتى مجرد واجب يؤديه باخلاص . هــو نوع من المتعة الداخلية . أن يرى تأثير حديثـــه في الناس ان يسمع منهم . ان يحدثهم في امور دنياهم . ان يدل حيران أو يقنع انسانا بالعدول عن خطأ . أن يصـــلح بين زوجيــن . أن يجمع بين رأسين في الحلال وعلى سنة الله ورسوله . ولكن السفر لم يعد موضوعا للمناقشة . وهكذا يمضي الشيخ صديق يتلمس طريقه الى منزل الأستاذ شوكت ناظر المدرسة لينيبــه عنه في الخطبة وفي الصلاة بالناس . وعندما يصبح في بيته مرة أخرى يكتشف أن موعد صلاة الفجر يقترب فيقرر الا ينام .

***

يصل الركب الحزين الى العاصمة . يشعر الشيخ صــديق بالحيرة والارتباك . ما أشد ماتغيرت الدنيا . قديمة هي آخر مرة زار فيها العاصمة . كان ذلك في أيام الشباب المبكر عندمـــا أستدعى الخدمة العسكرية واقام اياما لدى صــديقه باهـــر الصباغ . ايه . كانت ايام . منعته ظـــروفه في تلك الأيام من مواصلة دراسته في الازهر بينما واصل باهر الصباغ دراسته في الجامعة . ومنذ ذلك التاريخ تفرقت بهما السبل . انقطـع الاتصال حتى كانت تلك الزيارات البعيدة . أيامها كان باهـــر الصباغ طالبا في الجامعة وكانت ذكريات الدراســـة ماتزال نابضة . امضيا أياما ما كان أجمل منها في تلك الايام البعيدة ولانه كان متين البناء فقد قبل جنديا ولانه لم يكن لديــه مــال لبدفع البدل فقد ادى الخدمة العسكرية . في تلك الايام ذهــب يحارب في فلسطين وعاد محزونا مكروبا . وبعد سنوات طويلة عاد الى القرية ليعرف أن باهر الصباغ يشق طريقه بنجــاح في

العاصمة . شعر بالسعادة وأدرك باحساس خفى ان طريق كل منهما اصبح مختلفا . ومع مزيد من الانشغال ندرت زيارات باهر الصباغ للقرية حتى ان الشيخ صديق ليشك الان فى انه سوف يتعرف عليه ان راه ومع ذلك فهو السند الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى هذه المدينة الهائلة .

وهكذا يمضى الركب الحزين مسترشدا بالعنوان الذى يحمله حسين رشدى . وأمام عمارة فارهة يتوقف الركب . ويتأكد الشيخ صديق من ان الاستاذ باهر الصباغ يقيم فيها يرشده الباب الى شقة الاستاذ ولكنه ينبه الى ان الاستاذ لا يستقبل أحدا بدون موعد . هذه هى القاعدة يعرفها الجميع . يضغط الشيخ صديق زر الجرس . تخرج خادمة صغيرة هى من بنات القرية ترحب بالشيخ فى لهفة ولكنها تعتذر عن استحالة دخوله فى غياب الاستاذ . يعرف الشيخ ان الاستاذ فى النادى تتحرك السيارة الى النادى . بعد رجاء ملح يأذن موظف الاستقبال للشيخ بالدخول ويدله باشارة من يده الى حيث يجد الأستاذ . يعود الارتباك الى الشيخ . الممرات العديدة تحوطها الأشجار من كل جانب . . وثمة مكان فسيح مقسوم نصفين بشبكة خمن ان يكون هذا هو ملعب التنس . صدق تخمينه . كان ثمة اثنان يلعبان والكرة الصغيرة تتقافز فى كل جانب وثمة صبى يجمع الكرات فى كل طرف من طرفى الملعب . يشعر الشيخ صديق بالحرج ولكنه يتخلص من حرجه بسرعة . ويطلب من الصبى القريب أن يدله على الأستاذ فيشير الصبى الى الرجل يطلب منه أن ينبهه لوجوده . يأتى الرجل . انه هو نفسه الأستاذ باهر الصباغ . تمر لحظات حرجة ويتذكر باهر الصباغ يرحب بالشيخ صديق ترحيبا لم يسترح له الشيخ . يدعوه الى الجلوس الى احدى الموائد القريبة ريثما يفرغ من آخر مجموعة يعتذر الشيخ بأنه فى مهمة عاجلة يقتضى الامر فيها معاونته . يبدو

الضيق واضحا على وجه الرجل . يغالب ضيقه ويمضى معـــه الى المائدة . تستحثه زوجتـــــه على العـــودة الى اللعب . يستمهلها بيده . يروى له الشيخ القصة . يفاجىء الشـــــيخ بالسؤال :

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ كنت أظنك تعرف .

ـ فى الحقيقة لا . اخبرنى أنت . ماذا أفعـــل واليـــوم الجمعة ؟

ران صمت رهيب لم يدم طويلا . قطعه الأستاذ باهر :

ـ حتى فى يوم عطلتى لا أجد فرصة للراحة . وعلى أن أزعج الناس الآن فى بيوتهم لادخله مستشفى .

كأنه تذكر شيئا مهما . قال باهر الصباغ :

ـ أقول لك ياشيخ صديق . سأعطيك بطـاقة من بطاقاتى وماعليك الا أن تذهب الى مستشـــــفى ... وتقدمها للمدير وسوف يقوم باللازم . هه ؟ ماذا تقول ؟

لم يعد الشـــيخ صـــديق بحاجة للحديث . يقبض على البطاقة بيده . يسأل شرطى مرور عن معهد السرطان . يصف له الشرطى . يصل الركب الحزين الى المعهد يتأمل الشـــــيخ البطاقة . يلقى بها من نافذة السيارة . يسند الفتى ويصـــعد درجات العيادة الخارجية . يقف بجوار الطبيب . يشجع الاب على أن يحكى . يقدم التقارير الطبية . يقبل الفتى بالمستشفى لاجراء الفحوص والتحاليل .

يمضى الشيخ صديق وحسين رشدى فترة انتظار قلقـة يتقرر فى النهاية اجراء جراحة عاجلة للفتى . تجرى الجراحة

بعد فترة انتظار حرجة يعلن الطبيب نجاح العملية . يرجـــو حسين رشدى الشيخ صديق أن يعود الى القرية ليراعى شئونه ويطمئن الأسرة . يعود الشيخ صديق . يلتقى به الحاج درويش الصباغ . يبادره قائلا :

ــ هه يا شيخ صديق . ماهى الاخبار ؟

ــ أخبار طيبة والحمد للـــه .

ــ طبعا قام الاستاذ بالواجب . لقد اتصلت به لاوصـــيه ولكنى لم أجده .

ــ وأنا أيضا لم أجده .

ــ كيف ؟ لابد أنه مسافر .

ــ نعم .

* * *

برج الكبش

بـــرج الكبـــش

ــ هل علمتم بما حدث ؟

سأل السائل .. أجاب الجميع بتساؤل مضاد :

ــ مـــاذا ؟

أجاب الســـــائل :

ــ كركشنجي ذبح كبشـــه

انفجروا ضاحكين فجأة .. وتوقفوا عن الضحك فجأة .. غرقوا فى التأمل ثم قال أحدهم وهو شـــاب متحمس :

ــ لكن كيف حدث هذا ؟ هذا امر خطير ..

هزوا رؤوسهم موافقين .. قال أحدهم وهو اكثر حكمةوأطول تجربة :

ــ أيها السادة .. لاتتسرعوا فى اصدار الأحكـــام فالأمر يعتمد ..

سأل أحدهم :

ــ ماذا تقصد ؟

قال الرجل الأكثر حكمة :

ـ يتوقف الأمر على الظروف .. حتى نصدر حكما يجب أن نتأكد أولا ان كان الكبش هو كبش كركشنجى حقا .. واذا كان كبشه فما هو مصدر ملكيته له .. هـــل هو بالشراء أو الميراث .. وان كان بالميراث فهل هناك شهادة وفـاة واعـلام وراثة .. وهل يشاركه فيه ورثة آخرون أم أنه ملك خـــالص له .. واذا كان قد تملكه بالشراء فهل هناك مايثبت أن البائع كان يملـك الكبش ملكية لاشبهة فيها .. وهـــل اشـــترى كركشنجى الكبش من مال حصل عليه من مصدر حـــلال أم حرام وبعد هذا كله يجب ان نعـــرف اذا كان كركشنجى قـد ذبح الكبش لتحقيق منفعة عامة أو خاصة أو لمجرد الـذبح .. وهل ذبحه بنفسه أم ذبحه له شخص آخر .. وهل تم الـذبح بطريقة صحيحة أم لا . والأهم من كل ذلك هو مـوقف الكبش نفسه من القضية .

سأل أحدهم :

ـ وما هو الحل ؟

ـ وكيف نتبين كل ذلك ؟

أجاب الرجل الأكثر حكمة :

ـ ألم أقل لكم ان القضـــية ليســت بالبســـاطة التى تتخيلونها ؟

سأل أحدهم :

ـ وما هو الحل ؟

ـ أجاب الشاب المتحمس :

ـ ليس هناك حل غير أن نسأل الكبش المذبوح .

سألت صاحبى :

ـ هل هذا ممكن ؟

قال :



ـ لست أدرى .. ولكن مايحدث فى العالم يجعل أى شيء ممكنا ..

***

الغرفة ضيقة يكاد رأسى ينحشر بين جدرانها .. عميقة أتردى فيها الى غير قرار .. واسعة كفضاء لا نهائى مظلم مليء بالحلقات والدوائر .. حلقات من الدخان الازرق تتلاحق وتتراقص ! . تلتقى وتتباعد تتكشف وتضمحل ! . كل حلقة تحمل صورة .. تبدو الصورة فى البداية بكل ملامحها وألوانها .. ولكن الالوان كلها تتلافى وتكون لونا واحدا هو اللون الرمادى .. والملامح كلها تتجمع مكونة وجه ذئب يتلمظ .

قال صاحبى :

ـ ان لم تضحك عليهم فسوف يضحكون عليك .

ضحكت ولم أعرف السبب .. كأننا خلقنا لنضحك ونفكر كيف ان كركشنجى ذبح كبشه .. مال الرجل السمين الدائم اللهاث نحوى وقال :

ـ انستنا يا استاذ .



لست أدرى ان كان ترحيبه حقيقيا أم انه من باب لزوم مايلزم .. على أية حال لم أشعر بالارتياح له .. منذ البداية لم أشعر بالارتياح له ولكن لم يكن أمامى مجال للتراجع .. كان الجميع قد اعدوا عدتهم للسهرة .. منذ فترة طويلة لم نلتق .. فى هذا المساء شعرت برغبة حادة فى أن نلتقى .. طلبت صديقى الذى فوجيء باتصالى به وقال انهم مازالوا على العهد بينما انا الذى خرجت على الجماعة منذ حين . وتواعدنا على اللقاء .

* * *

ـ آنستنا يا أستاذ .

لم اشعر بالرغبة فى الاجابة ولابضرورة الاجابة .. اللقاء تم منذ البداية وحـــدث التعـــارف ولم تعـــد هنـــاك ضرورة الترحيب كل بضع دقائق .. ثم أن القضية مثارة وليس هناك أى معنى لقطـــع التفكير فيها بعبارات الترحيب الخالية من المعنى ..

القضية هى هل كان الكبش موافقـــا على ان يذبح أم تم الذبح عنوة ..

قال لى صاحبى :

ـ كم مرة فى التاريخ سئلت الخراف ان كانت تذبح أم لاتذبح .. وكم مرة فى التاريخ قالت الخراف رأيها ؟

قال الرجل السمين الدائم اللهاث وهو يميل نحوى :

ـ آنستنا يا أستاذ ..

ـ اصمت ..

قلت .. وأسررت لصديقى :

ـ أعرف أنه كاذب ..

قال لى صاحبى :

ـ ومن الذى يقول الحقيقة .. بل أين هى الحقيقـــة .. وماهى الحقيقة ؟

سألت صاحبى :

ـ وهل تعرف أنت ؟

قال صاحبى :

ـ عندما أعرف لن تجدنى هنا .

❊ ❊ ❊

لم أجد صديقى فى أى مكان .. كأنه لم يكن موجودا .، كأنه دخان ازرق .. تكثف لحظة ثم تلاشى مثلما الصور والالوان ولايبقى سوى ذئب فاغرفاه ليلتهمنى .

قالت لى زوجتى ذات يوم انها تنتظر حادثا سعيدا فكدت أطير من الفرح .. لكن الحادث السعيد لم يظل سعيدا .، الأيام حولت الحادث السعيد الى مطالب لاتنتهى وصداع لا يتوقف وسقوط دائم فى الرتابة والتأفف .

زوجتى انسانة عظيمة لانها تحتمل غلظتى .. وهذا الرجل السمين البدائى اللهاث لايتوقف عن الترحيب الزائف .. والخراف تذبح كل يوم ولا أحد يسألها أو يهتم بمعرفة رأيها فى الموت .. وحديث طويل عن الحق فى الموت .. وذات يوم سئل عبد ثائر عما يتمناه قبل أن يتم اعدامه فقال اريد ابنا يولد حرا .

قال الراوى : لم تكتمل فصول القصة بعد لاسباب خارجة عن الارادة . سنواصل الارسال بعد قليل . أما الآن فنستمع الى موسيقى هادئة ...

قال الراوى : لم تكتمل القصة بعد .. جاء رجل وصلب الراوى على الباب انه يقول كلاما لايناسب روح العصر .، هجم أبوزيد الهلالى هجمة اهتزت لها البرية وقص ـ ويقال انه جز رأس الغول .. من الذى قص رأس الغول حقيقة ..

اختلطت ملامح الصورة .. حـــاول أن تستجمعها .. هـــاهى تتجمـــع .. تكتمل .. ولـــكن ثمة جزء ناقص .. أين ذهب .. لست أدرى .. يقال أن ثمة علاقة طردية بين وضع جهاز الاستقبال من محطة الارسال وبين وضـــوح الصـــوت والصورة .

ها أنا فى وضع مناسب للاستقبال وهاهى محطةالارسال تبث بقوة ولكنى لا أفهم شيئا .

****

قال الراوى : كان فى سالف الزمان شاب عظيـــم الشـــأن يقال له الشاطر حسن اخذ حبيبته على حصانه الابيض .

اعترض أحد المتفرجين وقال :

ـ لم يعد هناك حصان أبيض .. كل الخيـــول صـــارت رمـــادية .. تطير بأجنحـــة رمادية وتمـــوت فوق رؤوس الاشجـــار .

قال الراوى : هذا صـــحيح .. لم تعد هنـــاك خيـــول بيضاء .. والخراف تذبح كل يوم .

سألت صاحبى :

ـ ألم تعد هناك خيول بيضاء حقا ؟

أجاب صاحبى بأن الأمر لم يعد ذا أهمية .. سألته :

ـ ما المهم اذن ؟

قال صاحبى غاضبا ؟

ـ انت تسأل اسئلة تافهة وبلا معنى .

تركني وانصرف .. لم يتح لى فرصـــة للاعتـذار .. شعرت بالأسى والمرارة .. قررت أن اغادر المكـان .. لسـت ادرى فى الواقـع اين اذهـب .. كـل الاماكن تتشابهة كـل الناس متشابهون .. لاشيء له طعم .. لاكلام له معنى .. منذ زمان بعيد سقطت الكلمات صرعى واصـبح الناس يتخاطبون بالأيدى حتى تكاد أيدينا تدمى من التصفيق .. يؤدى الممثلون أدوارا جادة فنصفق . ويؤدون أدوارا بالغة الهزل فنصفق .. ومنذ زمان بعيد كان الممثلون يستمعون الى التصفيق ويسعون اليه .. الآن لم تعد للأمر أهمية كبرى .. فهناك دائما من يدفع سواء أصفقنا أم لم نصفق وسقطت الخراف صرعى والكلمات ايضا تبددت مثلما تتبدد حلقات الدخان الازرق .

* * *

أريد أن اغادر المكان ولكنى لا استطيع .. قال أحـــدهم ولعله الرجل الأكثر حكمة :

ـ اشرب حتى تنسى واضحك حتى لا تموت .

ما أغرب الفكـرة .. قررت أن أنسى أو أمـوت .. لكـن الموت لا يأتى بقرار شخصى . لم أكن أظن أن الموت قـاس الى هذه الدرجة .. كل شيء داخلى يتصـــدع .. كأنما زلـزال عنيف مركزه قلبى .

كل شيء ينهار ..

قلت لنفسى : لا ينقذك الا محيى العظام وهى رميم ..

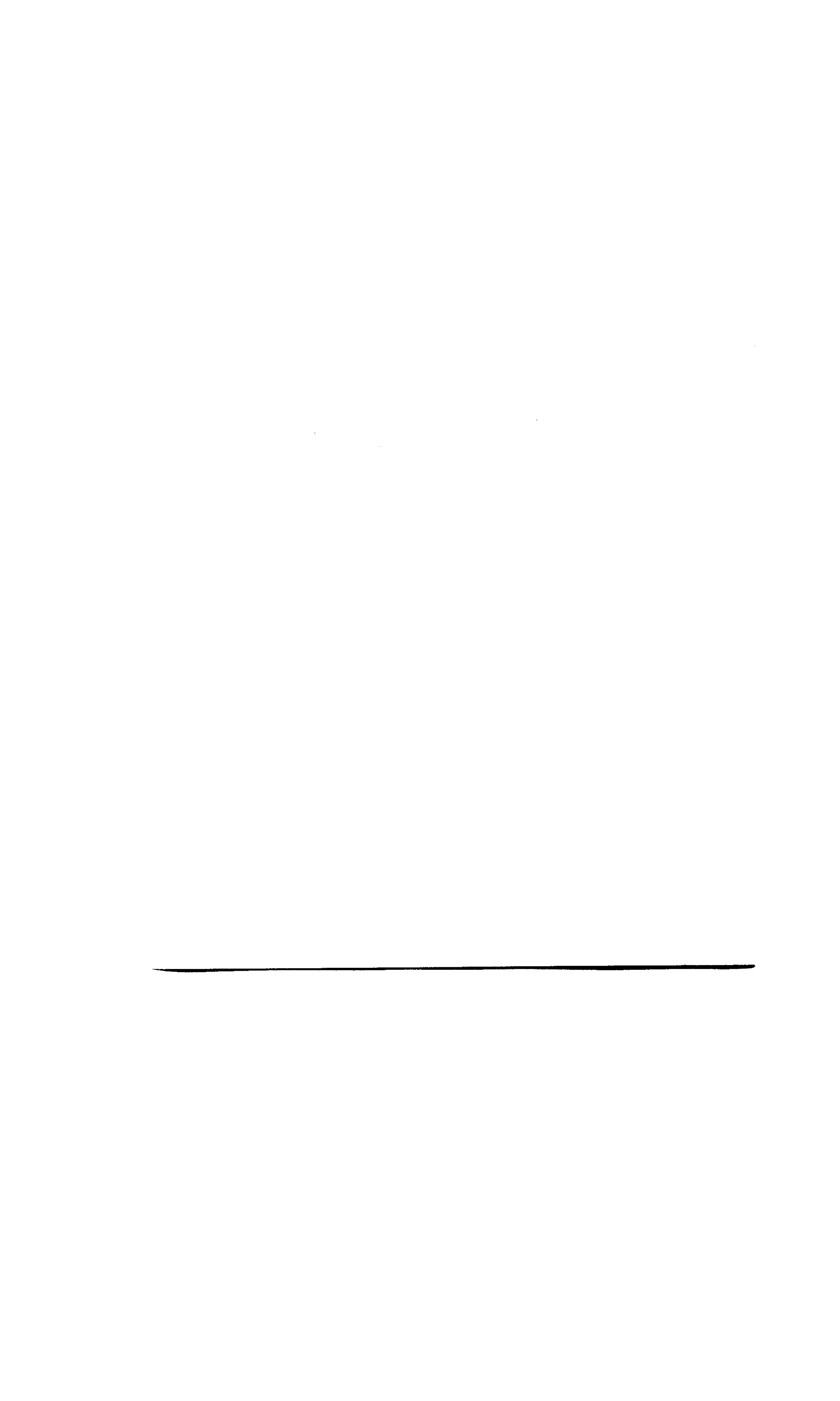
قلت : هذا اكتشاف متأخر جدا ..

تركـــت نفسى أغرق فى البئر الرمـادية وأغـــرق فى الضحك .. الناس يحملوننى على الاعناق لســت ادرى لمـــاذا .

واضحك لست أدرى لماذا لكننى أضحك . تزداد البئر عمقا ، وتزداد ظـــلاما وبرودة ووحشة .. يد خفية تقبض على قلبى بغلظة .. يتسرب الألم فى كل خلية من جســـمى .. لكـن الضحك مستمر .. عقلى يتكاسل والســـؤال عن كيفية ذبح كبش كركشنجى يتوقف .. لكن الضحك مع ذلك مستمر .

* * *

المبروك



المبروك

استيقظت القرية من النوم فى ذلك اليوم الشتوى لترى أمرا عجيبا . عفوا ، كثيرون بالطبع لا يعرفون اسمها . هذا تقصير ليس من السهل تحديد المسئولية فيه .. على اية حال هذا لا يغير كثيرا من الامر . فالناس فى القرية قد ألفوا حياتهم ولا يكترثون كثيرا ان اهتم بهم أحد. فعلى امتداد اجيال سمعوا كلاما كثيرا وتلقوا وعودا بالخير العميم . ولما لم يتحقق من كل ذلك شيىء توصلوا بأقل قدر من التفكير الى أن أفضل ما يفعلونه هو ألا يصدقوا شيئا مما يقال لهم ، والافضل من ذلك يدبروا حياتهم بأنفسهم .. بنوا مسجدين وثلاث مدارس وناديا للشباب وجمعوا مبلغا من المال قيل لهم انه ضرورى حتى تتم سفلتة الطريق الموصلة بين القرية وبين الطريق الرئيسية الممتدة من القاهرة الى دمياط . وفى نفس العام الذى كان مقررا ان تبدأ فيه أعمال السفلتة توقفت كل المشروعات الجديدة فى المحافظة وقيل لهم ان الاعتمادات وجهت لاقامة مصيف جديد . لم يكترث الناس كثيرا وان كانوا قد شعروا بالاسف من أجل أبنائهم الذين يقطعون سبعة كيلو مترات سيرا على الاقدام فى الصباح ومثلها فى المساء لكى يذهبوا الى مدارسهم فى القرية القريبة ويعودوا منها . ومرة اخرى جمعوا المال اللازم للمساهمة فى سفلتة الطريق وجاء رجال كثيرون بدأوا عمليات المسح للطريق ثم مرة أخرى

توقف العمل وقيل لهم ان موارد الدولة كلها موجهة للمجهود الحربى فقالوا : حقا . لا صوت يعلو على صوت المعركة . ووجدوا ان الحل الافضل الا يذهب أبناؤهم الى المدارس بل تأتى المدارس الى القرية ولذلك أقاموا المدارس . ومع ذلك فقد بقيت ثلة من ابناء القرية تسافر الى أبعد من القرى المجاورة . الى المركز والبندر .. وكان العزاء لاهل القرية أن هؤلاء الابناء قد كبروا بما يكفى لان يتحملوا مشقة السفر . هكذا يجد أهل القرية عزاء فى كل شيىء حتى عندما اشتهر بعض أبناء القرية وانقطعوا عنها لم تصب القرية بكثير من خيبة الامل . قال الناس : هذا أمر طبيعى . فالذى يتعود السترة والسروال لا يستطيع ان يعود الى ارتداء الجلباب .. باختصار . أصبحت الامور تتساوى لديهم .

لكن الذى حدث فى صباح ذلك اليوم الشتوى لم يكن متساويا مع ما يحدث كل يوم . فى ذلك الصباح كان الرجال الصالحون قد فرغوا من صلاة الصبح وعادوا الى بيوتهم وكلهم قد التف بما تيسر له من ملابس تقيه البرد . وجلس كل منهم فى بيته يتناول قهوة الصباح المرة أو الشاى الاسود مع الخبز القديد والجبن القديم او الملح . تثاءبت القرية .. فركت عيونها ثم أفرغت البيوت من فيها الى الطرقات اللزجة بفعل الندى الطازج وبقايا المطر القديم .. توقف الاتوبيس عند مدخل القرية . هبط منه ناظر المدرسة الاعدادية وبعض المدرسين القادمين من القرية المجاورة والمشرف الزراعى الذى تزوج مؤخرا من احدى بنات القرية وصعد الى الاتوبيس الابناء الذاهبون الى المدرسة الثانوية فى المركز والخالة صباح التى زاحمت الجميع حاملة قفص الدجاج فى طريقها الى السوق .. مضى الاتوبيس بعد ذلك فى الطريق الترابية التى تحولت الى مسطح من الطين تتوسطه أخاديد صنعتها عجلات الاتوبيس .. وباختفاء



الاتوبيس خمدت حالة النشاط التى سادت دقائق وانتقلت حالة النشاط الى مجموعة الطرق الصغيرة المؤدية الى الحقول ..

كانت مجموعة من الرجال فى طريقهم الى أرض الاصلاح الزراعى مارين بالمقابر عندما استوقفهم احدهم قائلا :

ـ انظروا !

نظروا حيث أشار . رأوا رجلا شبه عار يحفر بجوار المقابر .. انكروا الرجل فى البداية كما انكروا ما يقوم به ، فليس ثمة أحد قد مات . وعندما تأملوا الرجل عرفوه . منجود . كان هذا هو اسمه . وهو رجل غريب التكوين وغريب الاطوار فى نفس الوقت . نبت ونما مثل نبات شيطانى . كان أبوه رجلا غريبا عن القرية جاءها يوما مع فرقة لتطهير المصرف الرئيسى واستقر بها ليتزوج فرحانة ، احدى العاملات الزراعيات .. وقيلت حول زواجه بها أقاويل كثيرة .. ولكن مع الوقت نسى الناس هذه الاقاويل واصبح الرجل ووجوده فى القرية وزواجه ثم انجابه لمنجود امرا واقعا تعايشت معه القرية ولم تهتم به كثيرا . ثم مات الرجل ولحقت به زوجته تاركين منجود ريشة فى مهب الريح . استطاعت هذه الريشة ان تصمد امام العواصف بقوة مجهولة وان تتحول الى رجل حار الناس فى معرفة ما يفكر فيه . لم يكن له عمل محدد . فهو تارة يعمل مناديا يبلغ أهل القرية بوصول شحنة من السمك أو بموعد صرف مواد التموين ، وهو تارة اخرى سمسار فى موسم القطن يسهل الصفقات الصغيرة ، وهو تارة عامل زراعى غير منتظم .. وفى كل الحالات هو لا يصبر على عمل واحد ولايستقر على حال .

حاول بعض شباب القرية التقرب منه ليعرفوا كم ادخـر وماذا ينوى ان يفعل بنقوده فنهرهم وابتعد .. وعندما تهدم البيت الذى يقيم فيه توقع الناس أن يفعل شيئا ولكنه ظل صامتا .. فلا هو باعه واستفاد بثمنه ولا هو حاول بناءه ولكنه استوطن المقابر . وحينما سأله بعض الناس ان كان يبيع بيته رفض . وعندما سألوه ان كان يبنيه قال ان هذا الامر يخصه وحده . وهكذا ظل على حدود القرية . لا هو داخلها وجزء منها يعيش حياة الناس ، ولا هو خارجها وبعيـد عنها فينساه الناس . وكم من مرة ترددت شائعات عن اتصـاله بعصابات السرقة التى تهاجم القرية من وقت لآخر فتسرق المواشى . وكم من مرة قيل انه بحكم اقامته الطويلة فى المقابر اصابه مس .. ولكن لا أحد استطاع ان يثبت شيئا من هذا ، ولا هو أثبت العكس .. وهكذا ظل لغزا مغلقا لم يستطع أحد من أهل القرية حل رموزه .

* * *

فى ذلك الصباح الشتوى فوجىء الناس بمنجود وهو يحفر بين القبور . استنكروا ذلك منه وسألوه :

ـ ماذا تفعل ؟

فى البداية لم يجب . أعادوا عليه السؤال فظل صامتا . داعبه أحدهم وسأل :

ـ هل تبنى بيتا هنا ؟

أطل عليهم بصدر مفتوح وعينين حمراوين وشعر أشعث وأسنان صفراء غير منتظمة وقال بصوت مثل البوق :

ـ بل أحفر قبرى .

لم تنم القرية فى تلك الليلة من فرط الدهشة . قال بعض الناس : « انه مجنون ولا شك » . وقال آخرون « انه يتجانن علينا » . ولم يعلق الشيخ بركات خطيب المسجد الكبير الا ببضع كلمات . قال : « الله فى خلقه شؤون » . وقال الشيخ حسين مأذون القـــرية : « مادام لم يضر أحـــدا منكم فدعوا الخلق للخالق » .... ومع ذلك لم تنم القرية فى تلك الليـــلة . وفى الصباح التالى توقف الناس عنده فوجدوه مازال يحفر وقـد اتسعت الحفرة وازداد عمقها ليغطى ساقيه . ســـألوه نفس السؤال واجاب بنفس الجواب . وعاد الناس فى المساء ينتظرون الصباح الجديد . وعندما توقفوا عنده كان مازال يحفر . وكانت الحفرة قد أصبحت بعمق ركبتيه ... وسألوه مثلما سألوه أول مرة وأجابهم بمثل ما أجابهم به أول مرة .. وفى اليوم الرابع توقفوا عنده وكانت الحفرة قد صـــارت بعمـــق فخـــذيه .. وسألوه :

ـــ هل مازلت تحفر قبرك ؟

أجاب :

ـــ نعم

وفى اليوم الخامس كانت الحفرة قد صارت بارتفاع صدره . سألوه نفس السؤال . وأجاب بنفس الجواب . هزوا اكتافهم بلا مبالاة ومضى كل منهم فى طريقه . وفى اليوم السـادس توقفوا عنده وكانت الحفرة قد أصبحت بعمق كتفيه . ومن باب العادة سألوه ومضوا ولم يسمعوا جوابه كاملا .

وفى اليوم السابع عندما وصلوا الى المقابر لم يروه . نادوه فلم يجب . أطلوا عليه فوجدوه يرقد منكفئا على وجهه . قلبوه على ظهره فوجدوه مغمض العينين وليس على وجهه أى انفعال . اكتشفوا انه قد مات . بعض الناس هزوا رؤوسهم فى حيرة

غير فاهمين ما حدث . وآخرون لم يهتموا بما حدث . وفئة أخرى هتفت من الاعماق : « هذا رجل مبروك » . غسلوه وكفنوه ودفنوه . وبينما هم عائدون أقسم البعض ان نعشه كان يطـير من فوق اعناق الرجال . ردد البعض « الم نقل لكم انه رجـل مبروك » .

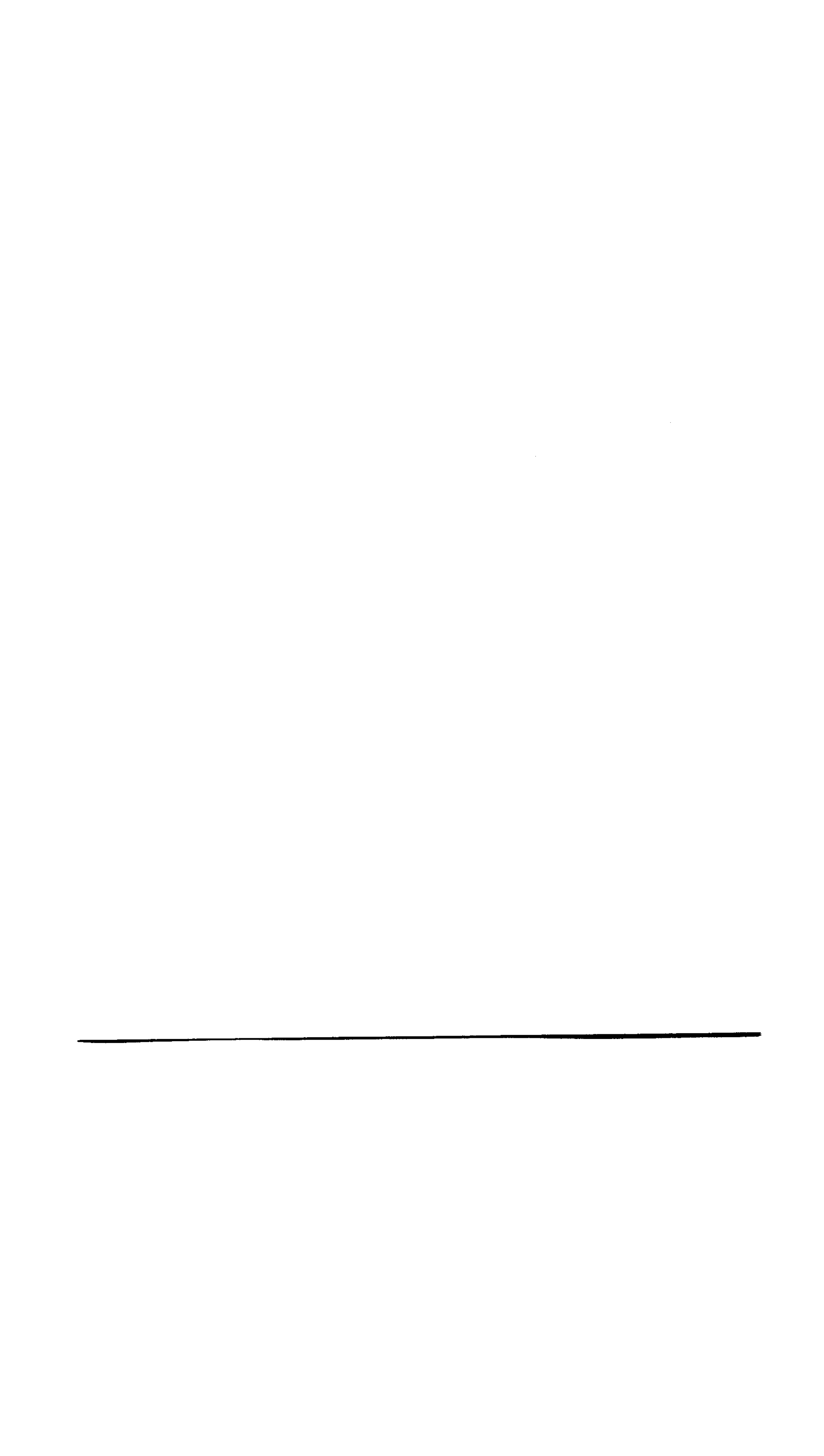
سرى الخبر من فم لاذن ، ومن البيوت الى سوق الثلاثاء . وقال الناس « هذا رجل مبروك . وهذه قرية مبروكة » . ذاع خبره في الآفاق وجاء الناس من كل مكان يلتمسـون البركة .

رجل واحد كان يراقب ما يجرى ويعرف الحقيقة لكنـــه ظل صامتا . كان المبروك في الحقيقة يبحث عن كنز قالت له أمه يوما قبل ان تموت انه موجود في المقابر . كنز سرقه اللصوص ودفنوه ثم ضلوا الطريق اليه . رجل وحيد في القرية كان يعرف القصة وكان يعرف ان قصة الكنز من أولها لآخرها أكذوبة اخترعها خيال أم لا تدرى ماذا تقول لطفل مريض . كان يعرف الحقيقة لكنه ظل صامتا . كان يعرف ان الوقت قد أصبح متأخرا ، وأن أحدا لن يصدقه .. ومات الرجل . لم تنتبه له القرية وعـادت تعيش حياتها بهدوء ومن وقت لآخر يتذكر كبار السن ما حدث . ويعلق أحدهم قائلا : لله في خلقه شؤون .



77

الانتـــــــظار



الانتظار

لأول مرة فى حياتها ضاقت بكل شىء .. كانت الريح فى الخارج تعزف عزفا حزينا فتبدو كأنها وهى تدور حول نفسها تؤدى رقصة صاخبة ولكن حزينة ، وتثيـــر أعاصير صغيرة تحمل حبات الرمل والاوراق الجافة تصفع بهـــا جدران الكوخ الخشبى القديم . وكانت الظلمة تغمر كل شىء . وانجو داخل الكوخ كان باردا قاتما رغم وجود المصباح الذى لم يستطيع أن يعزل داخل الكوخ عن الجو المسيطر فى الخارج .

تمنت ان تشعل نارا لكنها لم تستطع . لم يكن هناك ثقاب . . وخشيت ان ينطفىء المصباح اذا هى خلعت عنه زجاجته .. فلم يكن فيه الا ذبالة تصارع خيوط الهواء الرفيعة الباردة التى كانت تتسلل من الثقوب التى تمتلىء بها جدران الكوخ .

كان الضوء الخافت يترنح مجاهدا للوصول الى أركان الكوخ الضيق .. والظلال القاتمة تلقى بثقلها عليها وعلى ماحولها .. شدت أطراف البطانية حول جسمها نصف العارى .. وخيـــل اليها أنها تسمع صوته يأتى من البعيد . أرهفت السمع لكنها لم تسمع شيئا . شعرت بالخيبة . والحزن .

فى أيام صفوهما كانا يندسان تحت نفس هذه البطانية .. يدفىء كل منهما الآخر وهما نائمان على الاكيـــاس القديمـــة

المحشوة بالقش .. وبقايا النار فى المدفأة الفخارية تدفئها أكثر وتضىء الظلمة حولهما .. لم تكن بحاجة للمصباح .. ولم تكن فى حاجة للنار .. كان معها وكان هذا يكفى لكنه الآن ليس هنا .

تكورت فى ركن الكوخ وتمنت ان يعود . لقد خرج منذ الفجر وربما قبل ذلك .. حمل شباكه وحده واستقل القارب وحده .. لم يكن فى ذلك جديد . الجديد انه خرج غاضبا . الصحيح انه كان غاضبا منذ الليلة السابقة . فى كل مرة يحدث خلاف بينهما لم يكونا يبيتان الا وقد صفت نفساهما . لم يكن يهم من يبدأ الصلح . كان المهم ان يتم الصلح . لكن فى هذه المرة كانت هى المخطئة وكان عليها أن تبدأ لكن نفسها أبت .

اعترفت بأن هذه لم تكن أول مرة تناوشه أو تسبب له ضيقا لكنها فى كل مرة كانت تتراجع امام اصراره . قالت له أكثر من مرة انها تريد ان تترك هذا الكوخ وتقيم فى بيت والدها القديم فى القرية لكنه رفض . وأكثر من مرة طلبت ان يوفر لها شيئا مما اصبح الناس فى القرية يستمتعون به بعد دخول الكهرباء : ثلاجة . غسالة . أو تليفزيون لكنه كان يرد بأنه ليست ثمة حاجة لشىء من كل هذه الاشياء وليست هناك مقدرة على شرائه .

الحت عليه أن يسافر للعمل فى الخارج ويعود بقدر من المال يصلح به شؤونه لكنه رفض وقال لن يبرح هذا المكان حيا . وفى الليلة السابقة عاودت الكرة من جديد . صاحت وبكت ولكنه ظل عند موقفه وقال بصيغة حاسمة لكنها تفيض حنانا : لا اريد أن اموت بعيدا عنك . لا أريد ان اموت غريبا . لا أستطيع أن أحتمل الوحدة والغربة . قالت : الفقر فى الوطن غربة . قال : والغنى فى الغربة فقر . قالت : الحياة لم تعد تطاق . لم يعلق بشىء . جلس يذكى نار المدفأة الفخارية بينما أوت هى الى



الفراش . غلبها النوم فلم تدر متى اوى الى الفراش هو الآخر . وفى الفجر استيقظا معا .. أفطر على عجل وغادر الكوخ دون كلمة .. وكأنها تعاقبه او تعاقب نفسها لم تهتم بأن تأكل شيئا طوال اليوم .

حملت الريح اوراق الشجر الجافة والحصى الصغير الى جدران الكوخ . خيل اليها انها تسمعه . لا .. ليس هو ... لقد تأخر .. لقد أظلمت الدنيا منذ وقت طويل .. حتى أنها أغفت واستيقظت عدة مرات .. فى ليالى الصيف كانت تنتظره وهى تراقب القمر فى دورته عبر السماء او وهى تعد النجو عندما يغيب القمر .. وأحيانا كان يصحبها معه .. ولكنها الآن لا تجرؤ على مغادرة الكوخ .. كان القمر صديقها الوحيد عندما يغيب هو .. ولكن لا هو هنا الآن ولا القمر أيضا .. والريح تعوى والبرد قارس .. والظلام يلف كل شيء .. وهى خائفة وجائعة وحزينة .

ارتفع هزيم الريح فى الخارج واهتز الكوخ .. بعد قليـــل ستمطر الدنيا .. وسيمتلىء الكوخ بالمياه وينطفىء المصباح .. وستبقى فى المياه والظلام والبـــرد .. جائعة .. وهو ليس هنا .. ليته هنا .. ليته يعود .. سيلف ذراعيه حولها ويندسان تحت البطانية الممـــزقة .. سيمتلىء قلبهـا بالحـب وبطنها بالشبع .. لم يتأخر هكذا من قبل .

تغيرت الدنيا . وتغيرت فيها هى الاخرى أشياء . كان أى شىء يكفيها مادام موجودا .. أحيانا كانت تمر أيام كاملة دون أن يصيد شيئا .. ولكنها لا تغضب ولا تعرف الشكوى طريقـا اليها . كان يكفى انه معها ، رجلها صارم التقاطيع حلو الكلمة الواثق من نفسه دائما الذى لم ينهزم فى أى ظرف .

منذ سنوات .. حين اشتد ساعده واستقل بقارب ... حاول تاجر السمك الكبير ان يسيطر عليه كما سيطر على بقية

الصيادين .. ولكنه رفض .. ولم يستطع الرجل ان يفرض نفوذه عليه .. حاول ان يساومه .. وعرض عليه ان يعمل معه فى مقابل اسعار اعلى مما يدفعه للصيادين الآخرين .. كانت أمامه الفرصة للعمل على مراكب كبيرة .. وكان يمكن ان يصبح صاحب مركب كبير ولكنه رفض . ورغم ان رفضــه ذاع بين الصيادين فانه لم يجد منهم من يقف بجانبه .. منعهم الخوف والحرص على لقمة العيش .. وشعر بأنه وحيد . واختار ان يبتعد .. تركهم وأقام فى هذا الكوخ ، معها هى ، الانســانة الوحيدة التى استطاعت ان تفهمه وأن تحبه .

عوى فى البعيد ذئب لا تدرى من أين جاء .. والكلب فى الخارج أخذ ينبش الباب .. قلق هو الآخر .. ضغطها الحزن . واختلطت الاشياء امام عينيها . مدت يدها ومسحت الدموع . خيل اليها انها تسمع صوته من البعيد يناديها . انكمشــت لحظات داخل البطانية . ثم اندفعت خارجة من الكوخ . ابتعدت ضغطها الظلام والبرد . لم تجده . اقتحم الخوف قلبها . عادت ترتعد . اندست تحت البطانية وظلت تبكى . اخترق البرد عظامها حتى النخاع .. جلست ترتعد وطار النوم من جفنيها . كانت تحبه دائما . تزوجا منذ وقت طويل . كان صبيا عندما مات أبواه فى حادث احتراق منزلهما فكلفه ابوهــا . وكثيــرا ما خرجا للصيد معا . كان يعود مبتلا وكانت تغسل له ملابسه وتجلس تراقبها حتى تجف . وكان ابوها الشيخ يوصيها به رغم أنه يكبرها بسنوات . كان قويا وصبورا . منذ سنوات انجبت له طفلا لم يعش طويلا . وليلة مات اندسا معا تحت الغطــاء وظلا يبكيان . « هذه ارادة الله » هكذا قال وهو يبكى . ولــم تنجب بعدها . ولم يتذمر . كانت تعرف أنه يريد طفلا . وكانت تراه . ولكنه لم يشر الى هذا الامر من بعيد او قريب . وعندما طلبت منه أن يعرضها على الطبيب فى المدينة القريبة رفض قائلا

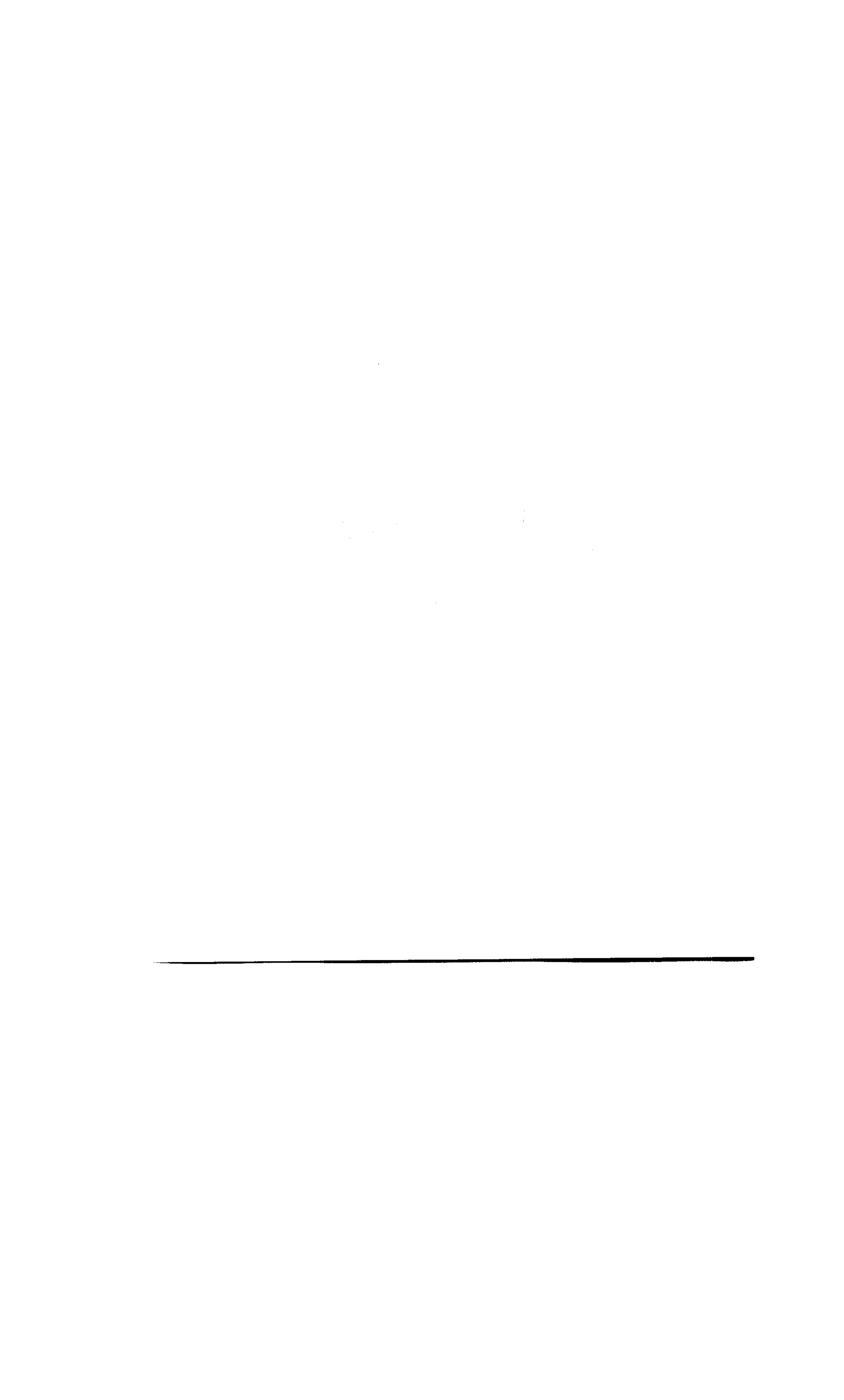
أن الطبيب هو الله . كانت تعرف انه يستطيع ان ينجب عشرات الاطفال وأرادت ان تعرف علتها . ولكنه رفض . كان عنيدا . ولكن صدره يمتلىء بالحنان . يوم مات ابوها الشيخ لم يكونا قد تزوجا بعد . وبعد موته طلب منها أن تتزوجه وقال لها يومها « أنت أهلى » . ولم تستطع أن تقول لا .

نظرت الى المسبحة السوداء الكبيرة المعلقة على جدار الكوخ . تسع وتسعون حبة . وشاهدان . لقد عدتها مئات المرات .. وتعرف الحبات المكسورة منها . هذه المسبحة لم تكن تخلو منها يد أبيها ساعة من نهار . وبكت .

خيل اليها انها تسمع صوته . ولم تحتمل البقاء فى الكوخ . لا بد ان يكون قد عاد . لقد سمعت صوته . سمعته بوضوح هذه المرة . ولا يمكن ان تخطىء اذناها دائما . تركت مكانها وخرجت . اقتحمت الظلام . ونادت « يا صابر .. يا صابر » علا صوتها على صوت العاصفة واخترقها .. جاء الصوت من بعيد « ياسمين » . لقد عاد . انهارت . لم تسطع ان تتقدم اكثر . استجمعت قواها وتراجعت خطوات . اصطدمت بباب الكوخ فأسندت جسمها عليه . سمعت صوت خطواته وهو يخوض فى المياه الضحلة . ثم وهو يثبت المرساة على الشاطىء .

فى ضوء المصباح الشاحب رأت وجهه . الوجه الاسمر كما كان دائما . صارم التقاطيع يفيض عطفا وحنانا . كانت الشبكة مطوية على كتفه يسيل منها الماء وفى يده سلة القى بها على الارض فتساقطت منها بضع اسماك . لم يكن ثمة الا القليل من الصيد . كان البحر فى خصام معه . هكذا قال . لكن هذا لا يهم ولا شىء آخر فى الدنيا يهم . لقد عاد . وهذا يكفى . لم تستطع ان تمنع الدموع . أراحت رأسها على صدره وأسلمت نفسها للبكاء .

خواطر رجل ميت



خواطر رجل ميت

محمولا على الاعناق تمضي في رحلة أولى وأخيرة .. رحلة لا تدفعك فيها الاكف والمناكب ولا يكتم انفاسك مزيج التراب والرطوبة والانفاس اللاهثة المشبعة ببقايا الطعام والتبغ وآثار المرض . ولا يصك أذنيك مزيج الصياح وأبواق السيارات والاغاني الرخيصة تنطلق من كل مكان . رحلة تستخدم فيها وسيلة مواصلات نادرة الاستعمال حجزت وخصصت لك سلفا لتستعملها لاول وآخر مرة . وها أنت الآن تستخدمها محوطا بكل تبجيل وتوقير . ولست مضطرا لان تقلب في جيوبك بحثا عن ثمن تذكرة الركوب او تنتظر بقلق ولهفة للحصول على بقية نقودك من المحصل . هذه المرة سيقوم الآخرون بدفع التكاليف نيابة عنك لاول واخر مرة ايضا . فهي رحلة الى حيث يذهب الناس ولا يعودون . رحلة تنتهي لتسلمك الى رحلة اخرى وحياة أخرى لا يسألك فيها أحد عن نسبك وحسبك ووظيفتك أو مؤهلك الدراسي او رصيدك من الاموال أو الممتلكات . رحلة سيكون السؤال فيها عما مضى تمهيدا لما هو آت . وستجد ما عملت حاضرا ومسجلا بكل دقة وتفصيل . وسوف تجادل عن نفسك بحرية لم تكن متاحة لك في أي وقت.

ولن تجد مساعدا او محاميا يدافع عنك . فأنت محامي نفسك ، وعملك هو وثيقة دفاعك .

* * *

محمولا على الاعناق امضي . لا احمل شعورا من أي نوع تجاه اى انسان لا ضغينة ولا حقدا على أحد ولا ملامة ولا عتابا لاحد . لا أملك لاحد شيئا كما لا يملك احد لى شيئا . لا يملك وكيل الوزارة ان يرقيني ولا يستطيع المدير العام ان يقرر لى علاوة ولا يقدر رئيس القسم على أن يطلب مجازاتى لخطأ وقع حقا أم لم يقع ولا يملك زميل ان يدبر لى موقفا محرجا أمام الجمهور او الرؤساء في العمل . لم يعد شيء ولا احد يعنينى ، لا من احبنى ولا من كرهنى . لا من اعاننى ولا من سعى الى ايذائى . لا من يحتاجنى ولا من يعتبرنى كما مهملا . حتى هؤلاء الذين أساءوا لى وآذونى لا املك العفو عنهم . فقد انقطع مابينى وبينهم . وهؤلاء هم الان يشاركون فى الرحلة وفى الحديث ذاكرين كفاءتى واخلاصي ونظافة يدى . وان كان جلال الرحلة لم يمنعهم من أن يتحدثوا فى نفس الوقت عن الفراغ الذى تركته وعن توزيع العمل بعد رحيلى وعن مكتبى ومن سيخلفنى فيه . وهذا امر يدعو ربما الى الدهشة . فما كنت اظن ان عملى فى قسم المحفوظات بهذا القدر من الاهمية على الاقل من الناحية الشخصية . فقد امضيت فيه بضعة وثلاثين عاما لم تطرأ على حالتى الوظيفية خلالها سوى تطورات محدودة كان يعنينى منها بالقدر الاكبر مقدار العلاوة السنوية المعتادة والعلاوات الاستثنائية التى تتقرر من وقت لآخر حسب الظروف العامة . ولم تطرأ على العمل ذاته تطورات هامة باستثناء استبدال أرفف ومكاتب معدنية جديدة بتلك القديمة التى تآكلت بفعل الزمن والاستعمال والنقل ولم يعد يجدى فيها اى اصلاح . ومع انه ترتبط بعملى مصالح الالوف من البشر سواء اكانوا موظفين فى الوزارة أو من



جماهير المتعاملين معها فانني لم أشعر يوما بأهمية ما أقوم به من دور أو على وجه الدقة لم أحاول ان ابالغ فى تقدير اهميتى الشخصية او أهمية الدور الذى أقوم به . فقد كان لدى احساس دائم بأن العلاقة التعاقدية بينى وبين الوزارة تقضى بأن أقوم مقابل ما أحصل عليه من مال بأداء هذا الدور فليس لاحد أن يمن على الآخر . لا أنا أمن على الوزارة باخلاصى فى اداء واجبى ولا الوزارة تمن على بتقدير مجهودى . ولكن هذا النوع من التفكير لا يلقى تجاوبا عند بعض الناس . وتبدأ المشكلة عندما يكون هؤلاء البعض اصحاب قرار او مشاركين فى صنع القرار . على أية حال لم تعد ثمة مشكلة . فلا هم قادرون على اتخاذ قرار بشأنى ولا أنا بحاجة الى قرار منهم وهم الآن يعترفون بأننى تركت فراغا كبيرا وان اكفأ الموظفين وأقدمهم سيحتاج ربما لسنوات لكى يلم بأطراف العمل الذى كنت أقوم به . فأن البضعة والثلاثين عاما التى امضيتها فى هذا القسم كانت كفيلة بأن أعرف موقع كل ملف من ملفات الموظفين او اصحاب الحاجات دون حاجة للرجوع الى الفهرست . بل أستطيع ان اتذكر موضوع أى ملف وأذكر محتوياته بالتفصيل من مجرد النظر الى غلافه دون خطأ مهما تشابهت الالوان . فكل ملف له عندى ما يميزه . اختلاف درجة اللون ، درجة تقادم الملف ، بقعة حبر أو بقعة زيت متخلفة من وجبة فول وفلافل ، قطع طرف من اطراف الملف ، أو ربما دبوس صغير .

هؤلاء الذين أساءوا لى بسوء نية أو بدون قصد يذكروننى الآن بالخير ان صدقا وان كذبا ورياء . لماذا لم يفعلوا ذلك من قبل ؟ ربما لو فعلوا ذلك يوما لكانت تغيرت أشياء فى حياتى . على أية حال لا استطيع ان الومهم فهم بشر . ولكل منهم طموحه وأحلامه ونوازعه . وفى مثل وظائفنا يشعر الانسان انه محكوم عليه بالجمود والفقر الابدى بينما زملاؤهم فى مواقع عمل أخرى ينطلقون بسرعة الصواريخ سواء فى سلم الوظائف او فى الدخل.

ومن ثم تكون الاهتمامات صغيرة ويكون التنافس وأحيانا الصراع على مكاسب صغيرة .

ومع التنافس أو الصراع فانهم يجتمعون ويأتلفون فى مواقف معينة هذا احدها . خليط من الناس يمضى فى شكل جماعات صغيرة ملتصقة اعرف البعض منهم والبعض تغيب عنى أسماؤهم . وبين برهة وأخرى يصدر صوت يذكر الجميع بجلال المناسبة . ويكون ذلك بداية لمرحلة اخرى من الحديث او للترحيب بسعادة المدير العام الذى فاجأ الجميع بالحضور والذى يردد الجميع انه ينافس مديرا عاما آخر للترقى الى درجة وكيل وزارة ، وأنه لذلك يسعى ليثبت للوزير انه محل ثقة وتقدير العاملين فى المصلحة وانه يحرص على مشاركة الموظفين واسرهم افراحهم وأتراحهم .



محمولا على الاعناق فى سلام يمضى . فى رداء ابيض بسيط هو كل ما خرج به من الرحلة الطويلة وهو كل ما يحتاجه فى الزمن القادم . وربما يحتفظ به حتى يبلى وربما لا يبقى عليه طويلا . فقد يأتى اللصوص ويسرقونه بعد أيام او بعد ساعات . وربما لا يكتفون بسرقة الثوب وحده بل يسرقون الثوب وصاحبه ويذهبون بكل منهما فى اتجاه . يذهب القماش ليفصل حسب الحاجة ويذهب صاحبه ليتحول الى نموذج دراسى لمن يقدر على دفع ثمنه من دارسى الطب . وربما يكون المبلغ المدفوع ثمنا له اكبر من اى مبلغ حصل عليه فى حياته خاصة مع التكدس فى الكليات من ناحية وتدفق الاموال فى أيدى الناس من ناحية اخرى . لا احد يهتم بمعرفة مصدر هذه الاموال ولا وجهات صرفها . المهم انها تأتى وتدور وتتداول بين الايدى بايقاع اسرع وفى بعض الحالات بسهولة اكبر من اى تصور .

* * *

محمولا على الاعناق فى سلام امضى . فى رداء ابيض بسيط هو كل ما بقى لى وما احتاجه من الطين جئت والى التراب أعود . بداية بسيطة ونهاية بسيطة وفى بساطتهما كل مجد الخلق والابداع منذ الازل والى الابد . وفيما بينهما رحلة تطول أو تقصر وبصرف النظر عن طولها او قصرها فهى تلخص حكمة الوجود ، وجود الانسان على الارض . وانا الان ارقد على الارض ليس مهما ان كان يفصلنى عنها بساط فاخر او حصير رخيص فبعد قليل لا يكون بينها فاصل من أى نوع . الآن توشك الصلاة أن تنتهى . يؤديها الامام وخلفه صف واحد من المصلين . أرى بينهم ابنى الاكبر وبعض الاقارب والزملاء . والبعض انتظروا فى الخارج . كم اشفق على الابن الذى انتقلت اليه فجأة ودون توقع مسؤوليات الاسرة وهمومها وهو الذى لم يبدأ حياته العملية الا منذ شهور قليلة وامامه رحلة شاقة لكى يتزوج ويبنى بيتا ويكون أسرة .

الآن يقف أفراد الاسرة صفا يستقبلون التعزية . بعض المعزين يقرنون تعزيتهم بدموع صادقة او كاذبة يعلم الله . والبعض ينطقون الكلمات التقليدية من باب اداء الواجب . وآخرون وجوههم جامدة ولا تنبىء عن شيء .

الآن نتجه الى سيارة سوداء فى الانتظار . يفتح باب السيارة . يتصاعد مزيج من البكاء والدعاء وآيات القرآن الكريم . يشكل باب السيارة الخلفى عند غلقه حاجزا ما بين الداخل والخارج . فى الداخل ظلمة وبرودة ووحدة وسكون لا يقطعه الا بكاء خافت من ابنى الاكبر وشقيقى اللذين أصرا على صحبتى . وفى الخارج نور ونار ، ضجيج وزحام ، امتزاج والتصاق وصراع من اجل الحياة بشكل افضل واحيانا لمجرد الاستمرار فى الحياة .

تصل السيارة الى حيث ينازع الاحياء الموتى حق السكنى والاستقرار . وحيث تختلط مخلفات الابناء والاحفاد بآثار الاباء والاجداد مكونة مزيجا غريبا فريدا يشهد على ما أحدثه الانسان من خلل وخروج على المألوف والمتعارف عليه فى كل مكان وزمان من احترام الموت والموتى .

* * *

يقف بعض الرجال عند مدخل بناء متهدم يتلون الشـــهادة ويسترجعون . يجرى خلف السيارة كلب أعجف . يتصايح بعض الصبية ويجرون امام السيارة بلا مبالاة يطلق سائق السيارة التالية بوقه منبها الاطفال . تقف السيارتان . يفتح باب السيارة السوداء . تمتد الايدى تحمل الصندوق الخشبى القديم . يعلو من جديد مزيج آيات القرآن والبكاء والاسترجاع . يمتـــلىء المكان بتراب متصاعد من تدافع الاقدام وهبوب الريح . يدخـــل الصندوق الخشبى من الباب مغطى وبعد قليل يخرج فارغـــا منزوع الغطاء . ينطلق الركب من حيـــث اتى . يختفى المزيج الصوتى الحزين ويحل محله مزيج جديد من الاغانى الشعبية والموسيقى الاجنبية الراقصة .



الجائزة الكبرى

الجائزة الكبرى

استخلص الاستاذ عبد الحميد مرعى نفسه بصعوبة بالغة من الكتلة البشرية المتلاصقة داخل الحافلة . اختفت من انفه رائحة الهواء المشبع بالتراب والعرق وحلت محلها رائحة التراب وعادم السيارات .

تحسس ملابسه واعضاء جسمه . وقبل ان ينتهى من الفحص تحركت الحافلة فدخل فى سباق معها ليلتقط من احدى النوافذ الحقيبة البلاستيك المحتوية على دجاجتين اشتراهما له فراش مكتبه من المجمع الاستهلاكى القريب من مقر عمله .

هيأ نفسه لعبور الميدان كى يتوقف أمام الفاكهى لشراء بعض الفاكهة قبل أن ينحرف يمينا متجها الى شارع جانبى يقوده الى بيته . القى نظرة فاحصة على الميدان ليعرف اتجاهات السيارات ويحدد خطواته التالية . داهمه الاعلان يحتل اللوحة الضخمة العالية فى الطرف الآخر من الميدان : اشتر قليلا تربح كثيرا . أشتر أكثر .. تربح أكثر وأكثر وأكثر .

ارتفع الدم الى رأس الاستاذ عبد الحميد . شعر بأنه محاصر . فهذه الكلمات تطارده فى صحوه ويومه . فى لوحات الطرق يراها مصورة . وفى الصحف والمجلات يقرؤها بمزيد من التفصيلات وفى التليفزيون يشاهدها متحركة مرة على

قدمين داخل المحل الكبير واخرى على اربع عجلات فى سيارة هى احدى الجوائز وثالثة داخل طائرة فى رحلة للخارج هى جائزة اخرى من جوائز المسابقة التى أعلن عنها المحل الكبير وفى مرة رابعة وليست اخيرة يسمعها منظومة وملحقة فى الاذاعة المحلية والاذاعات الاجنبية التى يصل ارسالها الى ارض الوطن .

كانت فكرة المسابقة بسيطة جدا .. وعادية جدا .. انها دعوة للمشاركة فى سحب يجرى على المبيعات فى المحل الكبير . فليست للمسابقة شروط . فهى مفتوحة للجميع وما على الانسان الا أن يشترى . وفى مقابل كل خمسين جنيها يحصل على بطاقة للمسابقة من جزئين وعلى المشترك ان يملأ البطاقة ويسلم جزءا منها لادارة المحل ويحتفظ بالجزء الآخر انتظارا للسحب الكبير .. وبقدر ما يشترى المشترك اكثر تزداد فرصة للفوز . فبدلا من بطاقة واحدة يمكنه الاشتراك بعشر بطاقات أو عشرين او ثلاثين بحسب حجم مشترياته وقيمتها اما الجوائز فيسيل لها اللعاب حتى لعاب الاستاذ عبد الحميد مرعى الذى يقترب من الستين والذى امضى حياته بعقلانية وطموحات محدودة ونظام يقترب من العسكرية وهى صفات اكتسبها من أب كان يحتل منصبا عسكريا محترما وكذلك من دراسته للقانون . وساعدته على ذلك زوجة جاءت من اعماق الريف متمتعة بقدر مناسب من التعليم . فقد اعلن المحل الكبير عن الجائزة الثانية وهى شقة تمليك فى حى راق .. والجائزة الثالثة سيارة أوربية الصنع .. اما اقل جائزة فلا تقل قيمتها عن بضع مئات من الجنيهات . واما الجائزة الاولى فقد اجل المحل الكبير الاعلان عنها الى ماقبل السحب بقليل .

على غير الايقاع البطىء الذى يصبغ حياة الاستاذ عبد الحميد مرعى كانت خطواته سريعة وهو يعبر الميدان متجها



الى محل الفاكهى . ولكن ذلك لم يمنعه من سماع اغنية اعلانية عن المسابقة من مذياع محل العصير المجاور لمحل الفـاكهى .. وعندما لف له الفاكهى حزمة من الجرجير في ورقة صـحيفة كان الاعلان يشغل الصفحة كاملة من الصحيفة . وعندما وصل الى البيت وقبل ان تنتهى زوجته من اعداد الغداء حل موعـد نقل مباراة فى كرة القدم عن طريق التليفزيون وكان اعـلان المسابقة فى مقدمة الفقرة الاعلانية كما كان ختامهـا وقبـل الانتقال الى الملعب مباشرة .

فيما بين شوطى المباراة اعترف الاستاذ عبد الحميد مرعى لزوجته بهجة أنه طوال عمره يرفض اى كسب لا يأتى عن عمل حقيقى ويرفض ان يعلق الحاضر أو المستقبل على غيبيـات أو على ضربات الحظ بل لا يؤمن اصلا بشىء اسمه الحظ وانه مع ايمانه بما قدره الله وتسليمه به وقناعته ورضاه فانه يرى الاخذ بالاسباب . كما انه لا يرى معنى لاهدار الوقت وتضييع الجهد والمال فى انتظار ما يجىء او لا يجىء . لكنه يعترف اخيرا بأنه اصبح يميل للاشتراك فى هذه المسابقة فان الجوائز المعلن عنهـا جديرة بالاشتراك فيها .. سواء أكان ذلك من حيث قيمتهـا أم عددها .

المشكلة كما قال الاستاذ عبد الحميد مرعى هى انه لضمان فرصة اكبر للفوز فى المسابقة لابد من الشراء بمبلغ كبير جدا ومن ثم الحصول على عدد اكبر من البطاقات .. ومرتبـه كرئيس تحقيقات وكذلك الزيادات التى تتحقق له من عمـله المسائى كلها لا تسمح بفائض يمكنه من الاشتراك فى المسابقة .

أيدته السيدة بهجة واضافت ان هنـاك مشـكلة اخرى اضـافية وهى ان البيت بحاجـة الى عشرات الاشـياء ومن الصـعب التمييز بينها ووضع اولويات لهـا . فمـازالوا مثلا

يستخدمون تليفزيونا قديما صغيرا بينما كل الجيران يستخدمون تليفزيونات حديثة مزودة بأجهزة التحكم عن بعد ومسجلات فيديو . ومازالت تصنع لزوجها وضيوفها عصير الليمون بالطريقة التقليدية بينما جاراتها يصنعن العصائر والفطائر بأجهزة المطبخ الحديثة القادمة من دول الخليج او المشتراة من السوق المحلية . وان الشقة لم تدهن منذ اكثر من عشر سنوات بينما الشقق الاخرى فى البيت مفروشة بالموكيت وجدرانها مغطاة بورق الحائط .

استطردت السيدة بهجة فى ذكر المزيد من احتياجات البيت بطريقة اندهشت لها هى نفسها فيما بعد فقد راحت تعدد الاشياء التى تنقصها والتى تمتلىء بها بيوت الجيران . ولم يكن من عادتها ان تشكو أو تطلب شيئا . فقبل ان يقعدها مرض المفاصل كانت هى التى تشترى حاجات البيت بنفسها أو بمشاركة زوجها . ولم يكن له اعتراض على شىء مما تفعله. كانت المهام مقسمة بينهما بطريقة لا تدع مجالا للتداخل او سوء الفهم . هو مسئول عن اعالة البيت والاشراف على تربية الابناء . وهى مسئولة عن ادارة البيت وتربية الابناء . ولم يقصر احد منهما فى اداء واجب نحو الآخر أو نحو ابنائهما حتى تخرج الثلاثة الكبار . الاول عمل طبيبا وتزوج واستقل بحياته . والثانية عملت مدرسة فترة قصيرة ثم تزوجت وسافرت مع زوجها الى احدى الدول الخليجية اما الابنة الثالثة فلم تكن راغبة فى التعليم الجامعى منذ البداية واكتفت بدبلوم التجارة وتزوجت هى الاخرى زيجة مناسبة وقررت ان تقف بجوار زوجها وهو يعد دراساته العليا . ولم يبق الا الابن الاصغر وهو يقترب من نهاية دراسته الجامعية .

فوجىء الاستاذ عبد الحميد تمـــاما بقائمة المطـــالب والاحتياجات . وجه لزوجته نظره تحذير من الاســـتمرار فى سرد المزيد من الاحتياجـــات . لكنهـــا تجاهلت هذه النظرة واستمرت فى ذكر المزيد مما ينقص البيت . قالت ان الدنيـــا تغيرت والصحة لم تعد كما كانت فى الماضى . والابنـــاء الكبـــار قد تخرجوا وتزوجوا واستقروا فى بيوتهم . والولد الصـــغير يقترب من نهاية دراسته الجامعية . ولذلك فلا بأس ولا ضرر من شراء بعض هذه الحاجات الاساسية .

رغم ان الاستاذ عبد الحميد كان متفقا مع زوجته فيمـــا ذكرته فانه كان يختلف فى بعض التفصيلات ففى الماضى ورغـــم تزايد الاعباء لم يكن يحمل هما . كانت هناك افـــدنة ثلاثة فى القرية تزداد قيمتها عاما بعد عام . باع الفدان الاول ومن ثمنه جهز عيـــادة الولد الاكبر . وباع الثانى ليجهز الابنة الـــكبرى ويدفع لها مقدم ايجار الشقة قبل ان يصبح ايجار المســـاكن مجرد ذكرى . وباع الفدان الثالث ارضا للبناء بضـــعف ثمن الفدانين السابقين . ومن حصـــيلة بيعـــه جهز الابنة الثانيـــة واستبقى مبلغا وضعه فى صندوق التوفير وقرر عدم المساس به الا عند الضرورة القصوى . وهـــو لا يرى فى شراء هـــذه الاشياء ضرورة قصوى .

لم يكن من عادة السيدة بهجة ان تجادله طـــويلا فى أى امر . كانت تعرض وجهة نظرها وتترك له اتخاذ القرار . وفى كثير من الاحيان كان يأخذ بوجهة نظرها عن قناعة ومحبـــة . ولكن فى هذه المرة لم يكن من السهل اقناعه . كـــانت لـــديه أسئلة عديدة ظن انها بلا اجابات . فما الذى تريده بالضبط ؟ . سأل : هل نريد الشراء لاننا نحتاج هذه الاشياء فعلا أم لمجـــرد الاشتراك فى المسابقة ؟ وما الذى نريده من المسابقة ؟ اهو الفوز بجائزة ؟ وما هذه الجائزة ؟ وهل تساوى فعلا ان ننفق مبالغ

لا نعرفها الآن بالضبط ؟ ثم فى النهاية ما الذى يضمن لنا الفوز بأى جائزة سواء أكانت قيمة أم كانت تافهة ؟

. قالت السيدة بهجة وأيدها ابنهما سامر فى قولهـا ان البيت يحتاج حقا الى هذه الاشياء واكثر منها . واضافت ان تعليم الابناء وتزويجهم حالا فى الماضى دون التفكير فيهـا . وانه لا داعى للقلق بشأن سامر فما زال أمامه وقت . وأنهـا تجربة جديدة ان يدخلوا فى هـذه المسابقة فلو كسبوا منها فالمكسب سيكون لصالح سامر . واذا لم يكسبوا شيئا فسيكونون قد كسبوا أنهم اشتروا ما يحتاجونه منذ زمن .

فى العادة يضعف الاستاذ عبد الحميد مرعى امام ابنـه الاصغر فهو آخر العنقود وفاكهة البيت وتسلية الشيخوخة كما يردد الاستاذ عبد الحميد نفسه . وفى العادة لا يرفض له طلبا خاصة اذا لم تكن هناك مبررات واسباب قوية للرفض . ولكن فى هذه المرة يجد الاستاذ عبد الحميد اسبابا قـوية . فرغم تسليمه بأن البيت يحتاج الى الكثير والكثير فانه اعتـاد على النظام من ناحية كما أنه من ناحيـة اخرى يجب ان يتقى تقلبات الايام والا يحتاج الى أحد من ابنائه فى أى أمر خاصـة من النواحى المالية .

قال الاستاذ عبد الحميد ان الأب يعطى دون انتظار مقابل ويجوز ان يأخذ اذا احتاج ولكنه اعتاد ان يعطى ولا يحب ان يأخذ من ابنائه شيئا لان اليد العليا خير من اليد السفلى وقد كانـت يده هى العليا دوما مع ابنائه ولا يريد ان تنقلب الموازين لمجـرد شراء بضعة اشياء يحتاجها البيت .

لكن حجج الاستاذ عبد الحميد لم تصمد طـويلا للجـدل عندما جاءت ابنتهم الصغرى الفت تشكو لامها من ان ثلاجتهـا تعطلت ولا يمكن اصـلاحها وتحتاج لثلاجـة جـديدة فـورا ولا يحتمل دخلها هى وزوجها شراء ثلاجة مستوردة او من انتاج

شركات الاستثمار . كما انهم لا يمكـن ان يبقوا بغير ثلاجـة شهورا طويلة فى انتظار ثلاجة من الانتاج المحلى الرخيص .

ادرك الاستاذ عبد الجميد مرعى من الطريقـة التى روت بها زوجته قصة الثلاجة انه ان لم يسحب اموالا لشراء اشـياء خاصة بهم فسيضطر لأن يفعل ذلك من اجل ابنتهم . ووجـد أنه من المناسـب ان يكـون السحب مرة واحـدة والشراء مرة واحدة . وقرر ان يفعل ذلك بسرعة حتى يسد حاجـة ابنتـه وحتى لا يتراجـع فى قراره مـع الوقت أو مع كثرة التفكـير فيه .

* * *

لم تستطع السيدة بهجة ان تكتم انبهارها بالمحل الكبير . فهى منذ سنوات لم تغـادر البيت الا لزيارة الطبيب أو بعض الاقارب والاصدقاء القدامى فضلا عن زيارة ابنتها . ولذلك لم تر المحلات الكبرى التى نبتت ونمت بسرعة فى كل مكـان الا نادرا . ولكن ضخامة المحل فاقت كل تصور . ان الاعـلانات التى شاهدتها للمحل كانت تظهر اجزاء منه فقط لكنهـا عندما هبطت من سيارة الاجرة التى استقلوها وجدت نفسها امـام مبنى هائل يسبح فى الاضواء . وامتلأت خياشـيمها بمزيج من روائح الشواء والعطور وعوادم السيارات التى تزدحـم بهـا المنطقة المحيطة بالمحل . ودار رأسها وهى ترى نفسها وسـط حشود تموج بالحركة فى كل اتجاه . وعندما أبدت دهشتهـا داعبها سامر وهو يقـول : انتم تظنـون ان كـل الناس فقراء مثلكم . أشاحت بيدها وتعلقت بذراع زوجها . ورغم انها طوال حياتها تجد الحماية فى هذه الذراع فقد ظلت طوال جولتهـا فى المحل تشعر بمزيج من الارتباك والضياع . ولم يزايلها هذا الاحساس الا بعد العودة للبيت والجلوس فى مقعدها الخـاص وقد بدأوا يراجعون ما اشتروه على القائمة التى سبق وضعها

للمشتريات ليكتشفوا ان ما كان معهم من مال لم يكف لشراء نصف ما كانوا ينوون شراءه . وبينما هم يفعلون ذلك كان سامر يراجع بطاقات الاشتراك فى المسابقة الكبرى ويتأكد من ان البيانات مدونة فى كل البطاقات كاملة . فلما اطمأن لذلك سلمها لأمه بحرص وكانه يسلمها الجائزة الاولى التى لم يتم بعد الاعلان عنها .

عندما أوى الاستاذ عبد الحميد مرعى الى فراشه اخذ يراجع ما جرى . ولدهشته وجد انه اصبح مقتنعا بشراء المزيد : « على الاقل لاستكمال قائمة المشتريات » . و « ان الشراء مرة واحدة وقفل الموضوع افضل من الشراء بالتجزئة واكثر راحة » ومادام الامر كذلك فلا بأس من النظر فى أى اشياء اخرى قد يحتاجها البيت . ومع ذلك فقد نبه على زوجته وهو خارج الى عمله ان تكون الاشياء المقترحة فى حدود القدرات المالية .

ولكن الامر لم يكن بهذه البساطة .. فقد اكتشف الزوجان انه كانت تنقصهما أشياء أكثر مما كانا يقدران فى البداية فغرفة نومهما لم تتغير منذ زواجهما قبل ثلاثين عاما . واكتشفت السيدة بهجة ان وجود شواية لحم بالفحم ضرورى لان المشويات والاطعمة الخفيفة افضل لها خاصة وان قولونها ظهر انه عصبى ولم تعد تحتمل الاطعمة الثقيلة او الحامية . كما اكتشف الاستاذ عبد الحميد ان قسم النظارات فى المحل يعرض نظارات من نوعيات جيدة ووجدها فرصة لتغيير نظارته الطبية . بل اكتشف افراد الاسرة بما فى ذلك الفت واولادها انهم بحاجة الى اشياء لم يكونوا يفكرون فيها ولكنهم وجدوها امامهم فى المحل تعرض نفسها وتفرض نفسها عليهم بطريقة لاتترك فرصة لأى مقاومة من جانبهم . وهكذا وجد الاستاذ عبد الحميد مرعى نفسه يذهب مرة بعد مرة ليسحب من الرصيد حتى لم يبق منه الا ما يكفى فقط لاستمرار حسابه فى البنك دون ان يصفيه على امل ان

يتمكن يوما ما من ان يضيف اليه . وفى نفس الوقت تضخمت الحافظة التى يضعون فيها بطاقات المسابقة . وفى كل مرة كان سامر يحرص على التأكد من اكتمال وصحة البيانات والاجابات المدونة فى البطاقة .

***

وعندما اعلن موعد المسابقة ظل المحل الكبير محتفظا بالجائزة الاولى سرا لايذاع الا وقت اجراء السحب وتوزيع الجوائز فأحدث حالة عظمى من الترقب والفضول اللذين بلغا الذروة يوم اجراء السحب . ولأن الاستاذ عبد الحميد توقع ان يكون هناك اقبال كبير على حضور السحب فانه فضل ان تبقى زوجته فى البيت على ان يتصل بها من اقرب تليفون يخبرها اذا فاز بجائزة . وكان توقعه صحيحا اذ وجد السيارات تسد المنطقة المحيطة بالمحل ووجد حشدا من رجال الشرطة يحاولون تنظيم المرور وفك الاختناق . كما وجد الطابق الخاص بالادارة والمقرر اجراء السحب فيه غاصا بل مختنقا بالجمهور وعدد من رجال الشرطة يحاولون بجهد جهيد المحافظة على الامن وسط الالوف المحتشدين فى هذا المكان الضيق .

فكر الاستاذ عبد الحميد ان ينسحب من المكان على ان يعرف جائزته فيما بعد من الصحف او التليفزيون ولكن ثورة الحماس فيمن حوله وتوقع اجراء السحب فورا والحاح ابنه سامر وزوج ابنته كل ذلك حمله على البقاء . وعندما بدأت ترتيبات اجراء السحب صمت الالوف المحتشدون فى المكان . واعلن مقدم الاحتفال ان السحب يتم بحضور ممثلين للجهات الرسمية وانه لضمان الدرجة القصوى من الجدية والحيدة يتم تقليب بطاقات المسابقة الكترونيا وسيتم سحب البطاقات واحدة واحدة . ويقوم

بالسحب طفل وطفلة يتم اختيارهما من بين الاطفال الموجودين . وحدث نتيجة لذلك هرج ومرج شديدان حسمهما مقدم الاحتفال بذكر اسمى الطفلين اللذين وقع عليهما الاختيار . ثم اعلن انه سيتم اختيار عينات عشوائية من البطاقات لفحصها والتأكد من استيفاء البيانات . وعندما انتهى من ذلك اعلن أن الفرز سيجرى تصاعديا بحيث تعلن نتائج الجوائز الصغيرة اولا ثم الاكبر الى ان يتم الوصول الى الجائزة الاولى التى اعلن انها قطعة ارض للبناء مسجلة ولها رخصة بناء . وفى هذه اللحظة ساد الهرج من جديد ولكنه لم يستمر طويلا فقد اعلن مقدم الحفل عن بدء الفرز . وكانت دهشة الاستاذ عبد الحميد مرعى شديدة عندما اعلن مقدم الحفل لدى سحب البطاقة الاولى ان الاجابات بها غير كاملة . وتساءل اى اجابات وجاءه الجواب باستنكار انها اجابات الاسئلة التى فى البطاقة والتى هى اساس المسابقة فلما سأل ابنه عن الموضوع طمأنه بأنه اجاب كل الاسئلة . وعاد الرجل يسأل : اية اسئلة ؟ واجابة الابن بأنها اسئلة بسيطة : من احسن لاعب هذا العام ؟ ما اسم النادى الفائز بالكأس وهكذا .. فتساءل الاستاذ عبد الحميد : ومن الفائز بالكأس فأجاب الابن : ليس هناك فائز لان المسابقة قد الغيت . وهنا تعالت اصوات حولهما تطلب منهما الصمت حتى يتسنى الاستماع لنتائج السحب .

الضيق من الزحام ووجع المفاصل لم يمنعا الاستاذ عبد الحميد مرعى من الاستمرار فى الوقوف بانتظار سماع خبر فوزه باحدى الجوائز . قال لنفسه : لابد من جائزة ان لم تبرر ما انفقناه فعلى الاقل تبرر هذا الوقوف وهذا الانتظار الطويل . ولكن الانتظار طال دون جدوى فقد اعلنت جميع الجوائز واحدة بعد اخرى حتى الجائزة الاولى ولم يكن له نصيب فى اى منها . وعندما اعلن المذيع عن تهنئته لمن فازوا وامنياته الطيبة للآخرين

بالفوز فى المسابقات القادمة ابتسم الاستاد عبد الحميد ابتسامة صغيرة مسكينة . وعندما بدأ الناس ينصرفون ظل واقفا فترة غير قصيرة وبطاقات المسابقة فى يده لايدرى ماذا يفعل بها . وعندما كان عائدا الى بيته لم ينجح ابنه فى دفعه للكلام رغم محاولاته المستمرة . وفى الصباح وبينما كان الاستاذ عبد الحميد مرعى ذاهبا الى عمله عرج على محل الزجاج والاطارات القريب من منزله وطلب عمل برواز يتسع للبطاقات . وفى المساء كان يرفع صورة ابيه بحلته العسكرية من مكانها البارز فى غرفة الضيوف ويضع محلها الاطار الذى يحمل بطاقات المسابقة .

* * *

ليلة غربة أخرى

ليلة غربة أخرى

فض غلاف الرسالة .. فتحها .. قرأ :

ــ كامل .. لم أزل أحبك .. لم أزل أريدك .

نحى الرسالة جانبا ومنذ الامس كانت ملقاة على طرف مائدة الطعام . منذ الامس رآها بضع مرات . كل مرة كان يهم بفتحها وكل مرة كان يقرر التأجيل . دافع قوى كان يحثه على القراءة ودافع اقوى كان يثنيه عن ذلك . لم تكن أول رسالة تأتيه منها. ولذلك كان يتوقع محتواها ولم يكن يرى فيه جديدا . وهكذا ظل مترددا .. لكنه فى هذه اللحظة قال لنفسه انه اما ان يمزق الرسالة دون قراءة واما أن يقرأها ثم يمزقها كما فعل بالرسائل الاخرى السابقة . قال انه ليس ثمة مبرر للتسويف ولا للتردد .

قرأ السطر الوحيد الذى تتكون منه الرسالة :

ــ كامل .. لم أزل احبك . لم أزل أريدك .

قال .. لم يعد فى القلب مكان . ألقى الرسالة جانبا . تساءل فى كسل عن السبب فى انه لم يمزق الرسالة كما فعل مع سابقاتها . مد يده اليها من جديد . قرأها من جديد . أشعل عود ثقاب . مده الى طرفها بكسل . عندما اقترب لهبها من اصابعه وضعها فى الطبق وسط بقايا الطعام وتابعها وهى تحترق

ثم وهي تنطفيء رويدا وتتكور حول نفسهـــا . وقال مـــرة أخرى :

لم يعد في القلب مكان .

* * *

رشيدة .. لو انك ترويت قليلا .. لو انك لم تخونى العهد الذى قطعناه على نفسينا ونحن نتجول معا فى طرقات الكليـة أو نتهامس فى مقاعد قاعة المحاضرات او نجلس ملتصقين فى قارب صغير نجتاز به النيل من الشرق الى الغرب بأن نبـقى معا حتى الموت . لو أنك صبرت على العقبات التى توقعنا ان تقابلنا وقد اخترنا أن نبنى بيتنا بجهدنا وعرقنا ولا نعتمد على مساعدة من أحد . لو أنك لم تغيرى افكارك عن ماهية الحياة المثالية وترى انها الشقة الفاخرة والسيارة والرصيد المصرفى وحياة الفنادق الكبرى وعروض الازياء .. لو انك لم تلعببرأسك الاغراءات والالحاح المستمر من اهلك والمقـــارنات الدائمة بين ما أعرضه عليك وما هو متاح امامك . لو انك فعلت ولم تفعلى .. لو .. ما كنت رحلت . ما كنت تغربت . ما كنت تركت قلبى ومضيت بلا قلب . ما كنت تخليت عن احلامى وعشـــت دون أحلام . ما كنت تركت فنى ومرسمى وجئت اشرف على تنسيق مساكن ومكاتب واجمع مالا لا اعرف لمن اقدمه . ما كنت اجلس الان وحيدا بلا صديق وقد مللت الاصدقاء والاحاديث المـكررة والنزهات الرتيبة والافكار الباهتة . ما كنت امضى مثل هـذا اليوم بين أربعة جدران ولو كانت مكسوة بأفخـــر انواع ورق الحائط . ولو كانت ارضها مفروشة بسجاد ممتاز . ولو كان المسكن مجهزا بأحدث معطيات المدنية الحديثة .

* * *



ادرك كامل حسنى انه ذهب بعيدا فى افكاره . وادرك فى نفس الوقت انه لا جدوى من استرجاع الماضى . فهو يؤمن بأن عجلة الزمن تمضى فى اتجاه واحد : للامام دائما . وأنه لهذا السبب لا يمكن أن يعود الى رشيدة جلال او تعود اليه . وأن هذه العودة او التفكير فيها ضد حركة الزمن وضد المنطق . والاهم من هذا ضد كرامته . فهى يوما قد أحبته وقالت انه لا يوقف حبها له الا ان تموت ولو كانت تعرف يقينا ما يحدث بعد الموت لقالت انها ستحبه ايضا بعد الموت . لكنها مع ذلك لم تستطع أن تكمل الطريق ولم تستطع ان تقاوم اغراء المال وضغوط اهلها . ولم تستطيع ان تنتظره الى ان يتحرر من دين نحو اخوته وعهد قطعة على نفسه امام ابيه فتزوجت ممن اختاره لها أهلها . صحيح انها لم تستمر معه طويلا . ولكن العودة صارت مستحيلة . فالتحول الذى جرى احدث جرحا باتساع القلب وبامتداد العمر وبمرارة تعادل كل حلاوة الحب الذى كان . نعم .. قال كامل حسنى : الذى كان . وفى هذه اللحظة مسح دمعة شقت طريقها سريعا على خـــده .

* * *

البحر هو الملاذ . فهناك الامتداد اللانهائى . وهناك العمق المجهول . وهناك التجدد الدائم . موجة تعقبها موجة تعقبهـا أمواج وأمواج . مد وجزر بالتبادل والاستمرار . يأخذ البحر ويعطى بمنطق يتخطى قدرة البشر . يتعانق الماء والسماء فى البعيد البعيد .

كأن السيارة تعرف طريقها القديم . وكأنها تعـــرف فيم يفكر . بينما هو شارد وشريط يدور ويتجدد فى رأسه تمضى الى الشاطىء القديم الذى هجره الناس الى الشواطىء الجديدة القريبة التى جهزتها البلدية وزودتها بالخدمات وغزتها عربات

الاطعمة والمشروبات واللعب وادوات البحر . ظل يبتعد ويبتعد الى أقصى مكان . وعندما وجد بقعة خالية تماما من النـــاس أوقف سيارته على حافة الرمال الكثيفة وحمل مقعدا وحقيبة الرحلات ومضى فى اتجاه البحر . اتخذ ساترا من مرتفع من الارض وخلع ملابسه وارتدى لباس البحر . واندفع الى الماء . ظل يسبح وقتا لا يدرى مداه . وعندما أدركه التعب عاد الى الشاطىء . لاحظ وهو يمشى وجود فتحات دائرية صغيرة فى الرمال وآثارا اشبه باثار ارجل الدجاج . لم يعر الامر اهتماما . اختار مكانا مستويا والقى بجسده عليه مادا قدميه فى وجـه الشمس . كاد يذهب فى اغفاءة لولا انه خيل اليه أنه رأى عقربا فهب واقفا متحفزا . راجع صورة الشيىء الذى يقترب منه بصورة العقرب فى الكتب والافلام التى شاهدها فوجـد خلافا كبيرا . وكاد يستلقى على ظهره ضحكا عندما اكتشف ان مايرى هى سرطانات البحر تخرج من الماء ماشية على الرمال مخلفـة وراءها الاثار التى استرعت انتباهه ذاهبة الى الجحور التى تحفرها لنفسها قريبا من الماء او تذهب فى رحلة عكسية . ظل جالسا يراقبها فى استمتاع واندهاش مشوبين بالحذر بينمـا هى لاهية عنه بما تفعله .

* * *

يطول النهار أو يقصر لكنه فى النهاية يمضى .. نشعر بالوقت او ننساه او نتلهى عنه فانه ينقضى .. نحب الليـل او نتوقـاه فانه برغم كل شيىء يأتى .. وما أثقل الليل وما أشد الوحشة على قلب غريب وحيد جريح .

نامت الشمس فى حضن البحر وتوارت بعيدا فى اللانهاية. هبت نسمات باردة رطبة فسرت فى جسده العارى قشعريرة تدعوه لارتداء ملابسه والعودة . تساءل ان كانت ثمة ضرورة للعودة

الى المدينة .. قال انه ليس هناك ما يمكن ان يفعله سوى ما فعله مئات المرات من مشاهدة التليفزيون أو قراءة كتاب أو لعب الورق او الشطرنج مع بعض الاصدقاء او التجوال فى الاسواق ومشاهدة أصناف البشر الذين تعج بهم المحلات والاستماع الى عشرات اللغات واللهجات وشراء اشياء يحتاجها أو لا يحتاجها والعودة فى النهاية ليجد نفسه اسير أربعة جدران وسجين الصمت والذكريات .

* * *

رشيدة .. لو انك صبرت .. لو أنك بقيت كما كنت .. لو أنك حافظت على عهد قديم كان بيننا .. لو .. كنا الآن نعيش معا .. نحلم معا .. نفكر معا .. نضحك معا .. نسبح معا .. نلعب فى الماء معا .. تضربنا الامواج معا .. نسقط ونقوم معا .. نضحك ونبكى معا .. نعطى الحياة استمرارا جديدا معا .. كنا الآن نركب معا .. نزور ونزار معا .. نستكين للهدوء والصمت ونخلد للنوم معا .. لكنك تعجلت .. تغيرت .. فعلت مثلما فعل الآخرون .. حلمت بما يحلمون به .. جريت وراء ما يجرون خلفه .. فهل حققت ما كنت ترغبين ؟ هل وصلت الى ما كنت تحلمين به ؟ .. هل تجدين السعادة التى تواعدنا عليها يوما ؟.

* * *

ظلت الاسئلة معلقة وهو يرتدى ملابسه .. وهو يقود سيارته عائدا الى المدينة يلفه ظلام الطريق والصمت الذى لا يقطعه سوى صوت سيارة تتخطاه ماضية تنهب الطريق نهبا . لم يكن يجد سببا لان يسرع فى العودة .. ومع ذلك كان لا بد ان يصل .. وعندما كان فى طريقه الى مسكنه كان السؤال يتردد فى رأسه : ماذا افعل الليلة ؟. لم يكن راغبا فى ان يفعل شيئا او ان يرى أحدا .. كانت هذه حاله دائما عندما تصله رسالة جديدة من

رشيدة . فرغم انه قرر عدم الاستجابة لنداءاتها المتكررة بالعودة ونسيان ما مضى فالحقيقة كما يعترف كامل حسنى هى أن كل رسالة تأتيه منها تثير اشجانه وتوقظ النائم من همومه وتتركه نهبا للافكار المتصارعة . وعندما يكون فى هذه الحالة لا يحب ان يرى أحدا أو يراه أحد . فهو من ناحية لا يحب أن ينغص على الناس حياتهم بمشكلات هم فى غنى عنها . ومن ناحية أخرى هو لا يحب ان يراه الناس فى لحظات ضعفه . والاهم من ذلك انه يشعر ان هذه الحالات تتطلب اقصى درجات التركيز والمقاومة وهذا لا يتحقق الا وهو وحده .

* * *

لكنه لم يستطع ان يبقى وحيدا . فقد فوجىء وهو فى الحمام بجرس الباب يدق بالحاح فخرج نصف عار ليفتح الباب لماجد عمران وسليم الدمياطى وهما صديقان جمعتهما واياه الغربة . ومع اختلافهم الشديد فى الطباع والاهتمامات فان أمرا ما .. ربما ما قد جمعهم .. أحيانا يشعرون انه الاحساس بثقل وطأة الغربة على كل واحد منهما منفردا .. وأحيانا يشعرون انه الحنين للوطن .. وأحيانا يقولون انه الاجماع بينهم على أن ثمة خطأ ما هو الذى دفعهم للرحيل .. وأحيانا يقولون انها رسالة ودور يؤدونه لصالح الوطن وأحيانا أخرى لصالح دول شقيقة وعرب أشقاء .. وعندما يتفقون يختلفون وينهون لقاءاتهم دائما بانتظار لقاء جديد . وهم يلتقون دون موعد . ومن المألوف ان يبقوا جميعا فى مسكن كامل أو ماجد أو مسكن سليم عندما تكون زوجته وأبناؤه مسافرين .

* * *

وجد كامل نفسه مجبرا على الصحبة . وظلوا طويلا يتشاورون فى كيفية تمضية السهرة . وأعلن سليم انه مستعد

ليجعلها سهرة للصباح ما دامت اسرته ســـافرت الى الوطن وان اليوم التالى اجازة بمناسبة اليوم الوطنى . ولم تسفر المناقشة الطويلة عن اتفاق تام على برنامج السهرة فقرروا بداية أن يتجهوا الى السوق . وهناك قاموا بجولة كانت حصيلتها مشـــتريات كثيرة . واكتشفوا فى نهاية جولة الشراء انهم لا يحتاجون حقيقة لكل ما اشتروه .

وخلال مشاهدتهم احد الافلام تناولوا العشاءوشربوا الشاى. وبعده جلسوا يتسامرون ثم استأذن ماجد وسليم وبقى كامـل وحيدا . استلقى فى سريره محاولا ان يستدعى النوم مجربا كل الحيل التى يعرفها . واذ هو كذلك رن جرس الهاتف . رفـع السماعة ليأتيه صوت أنثوى هامس :

ــ مساء الخير يا حبيبى .

ــ من أنت ومن حبيبك . .

ــ أنا المحبة وأنت المحبوب .

ــ من أنت ومن تطلبين ؟

ــ أطلبك أنت يا حبيبى .

ــ الرقم خطأ بالتأكيد .

ــ لا ليس خطأ . . بل صحيح .

ــ أقول الرقم خطأ .

ــ اسمع . . أنا أريدك . . ما رأيك ؟

ــ من فضلك دعينى وشأنى .

ــ لا استطيع يا حبيبى .

ــ أرجوك . . هذا عيب .

وضع سماعة الهاتف وهو غارق فى عرقه . كأن الدم يغلى

فى راسه غضبا والرعب يحتل كل مساحة قلبه . فمن عساها تكون هذه ، أهى امرأة تعرفه حقا ورأته فعلا وحصلت بطريقة ما على رقم هاتفه ؟ أم أن المكالمة وليدة الصدفة وهذه المـــرأة انسانة وحيدة تسلى نفسها بهذه الطريقة المنحطة ؟ أم تراهـــا مدسوسة عليه من جهة ما لاختبار سلوكه ؟

* * *

كانت هذه أول مرة يتعرض فيها للتجربة . ولكنها لم تكن أول مرة يسمع فيها عن مكالمات من هذا النوع بل يسمع عن علاقات حقيقية طبيعية وشاذة . ولذلك ظل نهبا للحيرة . ولم يجد مخرجا سوى أن يرتدى ملابسه مرة أخرى ليخرج الى البحر او يذهب الى ماجد أو سليم يستشيرهما فيما حدث . لكنه قبل ان يكمل ارتداء ملابسه رن جرس الهاتف مرة أخرى فقرر ألا يرد. لكن الجرس ظل يرن بالحاح لم يجد معه بدا من رفع السماعة وهو ملىء بالتحفز . وجاءه الصوت مستغيثا :

ـ كامل ؟

ـ نعم . . من ؟

ـ اسمعنى يا كامل . أنا راشد . فى المرور الشمالى.الحقنى ارجوك .

حاول ان يعرف راشد من الذى اتصل به فى هذا الوقت من الليل . لم يتبين الصوت جيدا ولكنه أدرك أن صاحب الصـوت فى مأزق حقيقى مادام فى سجن المرور . وما دام يعرفه واتصل بـه فلابـد انه هو ايضا يعرفه وان كان غـاب عنه أن يتعـرف عليه . وحتى لو لم يكن يعرفه فهو انسان فى مأزق وقد استنجد به وعليه ان ينجده . ودون شعور أتم ارتداء ملابسه . وفى طريقه مر بماجد فوجده وسليم مازالا جالسين يتناقشان فاصطحبهما معه

الى ادارة المرور المختصة بمنطقة شمال المدينة . وبعد مشقة وصلوا الى المبنى . اتجهوا الى غرفة الضابط المناوب فلم يجدوا أحدا ووجدوا الرقيب المختص نصف نائم . خاطبه كامل طالبا رؤية راشد . سأل الرقيب فى كسل :

ـ راشد من ؟

ـ راشد .. راشد المصرى صاحب الحادث الاخير .

ـ آه .. هل أنت قريبه ؟

ـ نحن كلنا أقرباء .

ـ آه ..

اعتدل الرقيب ونادى حارس غرفة التوقيف وطلب منه أن يمكن احد الثلاثة من رؤية الموقوف راشد المصرى .. تقدم كامل ونادى الحارس من كوة صغيرة فى الباب الحديدى :

ـ يا راشد .. راشد المصرى .. تعال .

جاء راشد ملهوفا مضطربا .. تعرف عليه كامل . انه راشد بركات . لم تكن معرفته به قوية لكن هذا لم يكن يغير شيئا . روى له راشد بايجاز ماحدث . كان يقود سيارته ومعه زوجته المدرسة وبعض زميلاتها بعد جولتهن فى السوق وفى أحد تقاطعات الشوارع اصطدم بسيارة أخرى فأصيبت الزوجة وزميلاتها ونقلن الى المستشفى وأدخل السجن هو والسائق الآخر . وختم حديثه باكيا طالبا اخراجه من السجن .

لم يكن ممكنا أن يتم الأمر بالسرعة التى يريدها راشد . فقد كان عليهم أن ينتظروا حضور الضابط الذى حقق الحادث من جولته المرورية . وعندما حضر وجدوا فيه شابا لطيفا

أحسن استقبالهم . وقـال ان الخطأ من السـائقين مشـترك ولذلك سيتحمل كل منهما نصف تكاليف الاصلاح . وفيمـا يخص الاصابات فسيظل السائقان موقوفين الى أن يتم شفاء المصابات أو يقدمن تنازلات عن حقوقهن . أسرع الثلاثـة الـى المستشفى فى انتظار لحاق الضابط بهم . وهنـاك التقوا بأهـل المصابات . وبعد نقاش لم يطل وافقوا على تقديم تنازلات عن حقوق المصابات خاصة وقد أكـد الطبيب أن الاصـابات بسيطة . وبعد انتظار ممل حضر الضـابط وتلقى بنفسـه تنازلات المصابات . وكتب امر خروج للسائقين اخـذه كامـل وانطلق وزميلاه الى ادارة المرور .

تم ايقاظ الرقيب الذى قام متبرمـا . قرأ أمر الخروج بنصف عين ثم قال :

ـ هذا لا يصلح .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه غير مختوم

ـ ولكن الخاتم هنا وليس مع الضابط .

ـ ليس لى شأن .

ـ كيف ليس لك شأن .

ـ لابد من الختم أو حضور الضابط بنفسه .

ـ لكنه الآن فى الطريق ولا ندرى أين .

ـ اذن انتظروه .

قالها الرقيب ونام . ولم يكن أمامهم الا الانتظار . وجد كامل نفسه يتنقل بين الانفعال الى حد الانفجار وبين الهـدوء الى درجة البرودة .. برودة التفكير وبرودة الأطراف . ولـم

ينقذهم من ملل الانتظار والانفعال الا عودة الضابط الذى اندهش لوجودهم . وعندما أخبروه بالقصة بدا عليه الغضب لكنه كظم غيظه وقال : عنده حق . ولم يملك كامل أن يكتم سؤاله :

ـ يعنى لو لم تأت صدفة أو انتهت نوبتك كنا بقينا هنا الى ماشاء الله .

قال الضابط :

ـ عندما تنتهى نوبتى لابد أن أعود الى هنا أو على الاقل أتصل من الطريق للتأكد من انتهاء كل القضايا التى بدأتها . يعنى فى كل الحالات كنتم ستصرفون مع سجينكم . ولكن نبهوا عليه بالايتهور مرة أخرى .

ـ ان شاء الله .

قالها الثلاثة . واخذوا الورقة مختومة وذهبوا الى غرفة التوقيف . نادى الحارس من جديد على راشد الذى جاء مسرعا . فتح الحارس الباب ببطء شديد ثم سمح لراشد بالخروج . ولدى خروجه سلمه أشياءه . اندفع راشد يحتضن الثلاثة واحدا واحدا . وعندما مروا بالضابط ليشكروه اندفع راشد يحتضنه أيضا ويشكره والضابط ينبه عليه مرة أخرى بعدم التهور وبالعودة فى اليوم التالى لاستكمال المحضر . وبينما هم كذلك جاء السائق الاخر وهو اسيوى يجتهد فى الحديث بعربية ضعيفة .. مال على يد الضابط ليقبلها وهو يردد كلمات الشكر . قال له الضابط :

ـ اشكر هؤلاء الناس .. فلولاهم ماخرجت من السجن .

توجه نحوهم السائق ووجهه يفيض بتعبير من الارتباح والشكر .

شكرا اخى .. شكرا يا رفيق .. شكرا .. الله كريم ورفيق .

وعندما غادروا مبنى ادارة المرور كانوا قد نال منهم الارهاق والسهر .. قاد كامل حسنى سيارته وهو بين النوم واليقظة . تركوا راشد بركات أمام المستشفى للاطمئنان على زوجته وزميلاتها . وأمام رغبة ماجد وسليم فى أن يعودا الى بيتيهما أوصلهما كامل . وعندما وصل أمام بيته كان ظلام الليل ينسحب تدريجيا مخليا مكانه لضوء خافت ينساب مؤذنا بفجر جديد . وعندما صار أخيرا فى شقته شعر أنه غير قادر حتى على خلع ملابسه . استلقى فى سريره . وهو بين اليقظة والنوم رأى كأن رشيدة كانت تنتظره فى البيت وأنها استقبلته بعد ليلة الغربة الطويلة وأنه يحكى لها ماجرى .



المحتويات

كتب صدرت عن :

دار الضياء

١ ـ دليل التعاون الاستهلاكى فى مصر

٢ ـ احكام عبادات المرأة فى الشريعة الاسلامية
للدكتورة سعاد ابراهيم صالح

٣ ـ مبادىء النظام الاقتصادى الاسلامى وبعض تطبيقاته
للدكتورة سعاد ابراهيم صالح

٤ ـ الحياة داخل حقيبة ((مجموعة قصصية))
السيد عبد الرءوف

تحت الطبـــع

١ ـ دليل الكهرباء والطاقة فى مصر .
الانجاز ـ الواقع ـ المستقبل

٢ ـ دليل الحركة التعاونية فى مصر ـ نماذج رائدة .

٣ ـ موقف العلماء من النسخ .
للدكتورة ثريا محمود عبد الفتاح

كتب للمؤلف

١ ـ القطار والحبل ((مجموعة قصصية))
طبعة اولى ـ دار الافاق الجديدة بلبنان ١٩٨٠
طبعة ثانية ـ تهامة بجدة ١٩٨٤

٢ ـ النبش فى جرح قديم ((مجموعة قصصية))
طبعة اولى ـ تهامة بجدة ١٩٨١

٣ ـ الحياة داخل حقيبة .
طبعة اولى ـ دار الضياء بالقاهرة ١٩٨٨

رقم الايداع : ٣٢١٠ /١٩٨٨
مطابع شركة الاعلانات الشرقية